«رابطة اللغة» لعبد الرحمن شهبندر

بقلم سعيد ابو الحسن

* * *

تقديم : عام ١٩٤٦ كنت اسهم في تحرير جريدة «الحضارة» الدمشقية التي اصدرها المرحوم الاستاذ فهمي المحائري لتكون الناطقة بلسان عصبة العمل القومي ، بخاصة ، وجبهة المعارضة آنذاك بعامة . وكان المرحوم الاستاذ المحائري قد لاحظ اهتمامي باللغة والادب وعنايتي الزائدة بالجريدة من هاتين الناحيتين ، فقدم الي هديتين اعتز بهما واحتفظ بهما في المكان الحريز الجدير بهما : الهدية الاولى نسخة من القرآن الكريم — والثانية هذه الوثيقة التي اقدمها للنشر ، على صفحات مجلة الاديب الغراء ، لتكون في متناول من يريد من الباحثين .

وهذه الوثيقة مؤلفة من خمس ورقات من القطع الكبير مطبوعة على الالة الكاتبة ومسحوبة على الجستتنر، والصفحات الاربع الاولى مطبوعة كاملة أما الخامسة فمطبوعة حتى منتصفها وهي تحمل تحت القسم المطبوع خاتما مستديرا يحمل في الوسط عبارة « مكتب الاستعلامات السوري بالقاهرة » ، وعلى الاطار بين دائرتين هذه العبارة بالذات باللغة الفرنسية :

Bureau d'informations Syrien - le Caire

وحملت الوثيقة عنوان : « رابطة اللغة — حصن منيع في الجبهة العربية » ثم اربعة اسطر تضمنت التعريف بالخطاب والمناسبة التي القي فيها ، ثم نص الخطاب ، وقد طبعته على الالة الكاتبة كما ورد بالحرف — وقال لي المرحوم الاستاذ المحائري عندما اعطاني هذه الوثيقة : « انها لم تنشر من قبل » — ولعلمي بصلة الصداقة المتينة التي كانت تربط بين الزعيمين السياسيين فقد اعتبرت ما قاله الاستاذ المحائري من عدم نشر الوثيقة سابقا حجة ، وعلى هذا الاساس اقدمها لقراء الاديب بعد ان مر على اغتيال مؤلفها ست وثلاثون سنة (اغتيل الدكتور شهبندر عام ١٩٤١) ، ومر على وفاة مهديها بضع سنوات ، رحمهما الله .

* * *

رابطة اللغة
حصن منيع في الجبهة العربية

نص الخطاب الممتع الذي القاه معالي الاستاذ الزعيم الدكتور عبد الرحمن شهبندر في الحفلة الادبية التي اقامها بمنزله مساء ١٢ ابريل سنة ١٩٢٩ تكريما للاستاذ جميل بك بيهم عضو المجمع العلمي في بيروت . وقد حضرها صفوة مختارة من فضلاء العرب واقطاب الادب وقرروا في اثنائها تمهيد السبل الناجعة ووضع الخطط اللازمة لعقد مؤتمر دوري يتناول البحث في انهاض اللغة العربية وتقوية الاواصر بين ابنائها :

من الخطل ان يتوهم المرء ان الصراع بين الاقوام يقتصر على النزال في ميادين الطعن والضرب ، بل ان هذا الطعان يتناول العادات والتقاليد والمعتقدات والاوضاع وسائر الميزات التي تميز الجماعة الواحدة عن الاخرى .

ليست صدورنا وحدها عرضة لبنادق الفاتحين، ولا رؤوسنا لقنابل الطيارين ، بل ان الاطعمة التي ناكلها في بيوتنا والطرابيش التي نضعها على رؤوسنا والحفلات التي نقيمها في اعراسنا والادعية التي نتلوها في صلواتنا والعلوم التي نتلقاها عن آبائنا والالفاظ التي نلقنها ابناءنا كل ذلك عرضة لصراع اشد وطعان انفذ . وربما كان الموت في الميادين الادبية اشد فتكا منه في الميادين النارية — ذلك لان الامة مجموعة افراد خلقوا ليعملوا بالاشتراك على تحقيق غاية معنوية. فكل خسارة تخسرها الامة في معنوياتها تفقدها شطرا من هذه الغاية الجوهرية .

ان معظم المساعي العامة التي نصرفها في هذا الشرق العربي ، سواء في مصر ام في الشام ام في العراق ، هي موجهة لتأييد كياننا السياسي والاحتفاظ بحريتنا الحكومية ، لاعتقادنا ان من كان سيدا في بلده هو حاكم على الميراث المادي والمعنوي الذي يرثه من الاباء والجدود ، واما من كان عبدا فهو غريب حتى عن الدار التي يسكنها ، والاهل الذين يعيش بينهم ، والاوضاع التي ينشا عليها . مع كل ما اشتملت عليه هذه العقيدة من الحقائق الناصعة ، التي اهتدى اليها الشرق بعد المحن والالام ، فعلى من عاش مثلنا في بلاد كتب عليها موقتا الا تتمتع باستقلالها التام ، ان يتذكر ان الدفاع عن الكيان لا يقتصر دائما على ميادين الطعن والضرب . بل هنالك ميادين معنوية لا تقل في شرفها عن ميادين الحديد والنار .

ان مدنية الناطقين بالضاد مهددة بالاكتساح كما اكتسحت أشرف بقاعهم واثمن اراضيهم . لان الاوضاع التي ليست لها مدرعات تحميها ودبابات تذود عنها وطيارات ترفرف عليها ، مهما كانت عزيزة على اصحابها مقدسة في اعينهم ، لا تستطيع الثبات كثيرا على المقاومة والحرم الذي لا تحميه القوة بابه مفتوح للاقوياء .

ان كل هجوم طارىء يتطلب جبهة مستحدثة للمقاومة : فهجوم البورجة في النساء مثلا الف وحدة جديدة في الرجال باسم جيش الحشمة للرجوع بالمراة

الى الالبسة المدولة الاولى . وكذلك فعل تيار الافكار الفلسفية الحرة المطلقة من القيود فاقام في الماضي . كما اقام في الحاضر ، سدودا من اهل الدين وحملة التقاليد تمنع فيضانه . وما المفسرون والمجتهدون ودعاة الاصلاح في الاسلام الا عمال في اقامة هذه السدود . وكل تأويل جديد يهتدون اليه انما هو حجر في البناء .

ورأينا في ايامنا الحاضرة ان تقدم المانيا الاقتصادي وتفوقها في وسائل الحرب ادى الى محالفات دولية باسم انقاذ المدنية وتأييد الديمقراطية او غير ذلك من الجمل الخلابة في وجه التيار الجرماني الجارف مما انتج الحرب العالمية وذيولها التي تئن منها الشعوب .

وما استعرضنا مثل هذه الحوادث الا لنبين كيف تتألف الجبهات المتماسكة لرد الهجوم المستجد العنيف.

ولا مراء ان الناهضين في هذا الشرق المتوسط يعالجون طارئا جديدا هو الخطر الذي يهدد الثقافة العربية وعلى قدر عزائمهم ومضي السلاح الذي يحملونه ستكون صلابة الجبهة المعنوية التي يقيمونها . ومن العبث ان يتقدموا بالسيوف والرماح والابل والهوادج والشيح والقيصوم لمصارعة البنادق والمدافع والسيارات والطيارات وما يدفعها من الزيوت . فاللغة لا تستوعب هذه المصطلحات الحديثة هي مثل الامة التي تحمل السلاح البالي محكوم عليها بالفشل .

وليس مثل التجانس الادبي اللغوي الراقي اساسا لمثل هذه الجبهة الصلبة ولا يكفي ان ينطق الناس لغة واحدة ليتجانسوا في آدابهم بل لا بد من وضعهم في بوتقة التثقيف حتى يذوبوا في ادب واحد ولغة واحدة .

ان بين الناطقين باللغة العربية من اهل الشرق من هم في ثقافتهم ابعد عنا من الناطقين بالعجمة من اهل الغرب فعلينا اذا اردنا توحيد الصفوف حتى في القطر الواحد ان نعطي الثقافة حقها لان الاختلاط في اللغة مع التشابه في الثقافة اقرب الى التمازج من اتحاد اللغة مع التنافر في الثقافة وهذا ما حمل العلماء على القول بان التشابه المعنوي في اعضاء المجتمع هو اساس جوهري للحضارة .

ولما كان الدين في القرون الوسطى مدار الثقافة وقطب الدائرة في الحركات الاجتماعية كان جمع الاقوام (حتى المتنافرة في لغتها) حول العقائد المنزلة سهلا لا جرم ان الالمان والانكليز والفرنسويين اتحدوا يومئذ تحت راية الصليب لاخراج الكرد والترك والعرب من الاراضي المقدسة . ويرى كثير من اهل السياسة في اتحاد الحلفاء عقيب الحرب العالمية على احداث وطن قومي لليهود اثرا من هذه الجامعة الدينية وتحقيقا لنبوءة الكتاب المقدس بعودة المسبيين الى اورشليم بعد ظهور السيد المسيح . على ان حاجة بريطانيا الى مال الاسرائيليين في ابان اشتداد الحرب العالمية كانت ولا شك من الاسباب الرئيسية لنزول بريطانيا على ارادة الصهيونية .

واني وانا الفت الانظار الى شان التجانس الادبي في جمع الاقوام لا اريد ان ابخس اللغة حقها في المقام الرفيع الذي تبوأته في توحيد الناس بل انها هي رمز المجتمع والى نورها المتلألىء تعشو الاقوام المتخبطة في الديجور لتستنير .

وما اصدق ما قاله عنها بلاكمار وجيلين :

« لقد ادت اللغة دائما وظيفة مهمة في التنظيم الاجتماعي . فقد تولدت بواسطتها من حيث هي اداة التفاهم الجماعات الصغرى واعتزت وكذلك اتحدت جماعات اخرى . وتتجاذب الشعوب ذات اللغات المتماثلة واما ذات اللغات المتباينة ففيها ميل الى التنافر . والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جدا حتى انها تلاحظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين. ومع ان اللغة في مثل هذه الاحوال تدعو الى الانقسام فهي في الاصل كانت مدعاة الى الوئام . واللغة هي وليدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار وكل من ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي رد فعلها سببا من الاسباب الداعية الى حدوثه ونتيجة من النتائج المتولدة عنه » .

والان يهمنا ان نرى هل في استطاعتنا يا ترى ان نستأنس بشيء من قواعد العلم الثابتة في تشييد هذا الحصن الادبي المنيع القائم على رابطة اللغة والثقافة في الاقطار العربية الراقية ؟.

ولم اقتصر في مقالي هذا على هذه الاقاليم الراقية الا لسبب التفاهم الحادث بينها فالوزير والنبيل والفقيه والاديب والعالم والتاجر من ابناء مصر اذا حل ضيفا في سورية او في العراق مثلا اوجد لنفسه فيهما في مدة اربع وعشرين ساعة حلقة من الاهلين لا يحصر عدد افرادها تفهم منه لغته وتدرك اشارته وتقدر شكواه وتحيط بمعانيه احاطة الشقيق فهل يجوز ان نترك هذه القوة العظيمة تذهب عبثا كما ترك العلماء حتى الان حرارة الشمس تضيع في الصحارى وقوة الامواج تتكسر على الشطوط !

لقد اثبت العلم ان في مقدمة الاهداف التي يسعى المجتمع للوصول اليها الحصول على القوة وعلينا الا نغالط انفسنا بالحقائق فننقاد الى اولئك الكتاب النظريين الذين ملأوا الدنيا صياحا في اوائل الحرب العامة بالطعن في القوة للنيل من الاقوياء فمثل هذا الطعن ترويج للدعاية التي اثارتها المصلحة السياسية . قال تانبرج « اننا حاصلون على القوة فلا حاجة بنا الى البحث عن برهان اخر » وقال الاستاذ جدنجس « ان معظم الناس يعجبون

بالقوة خاصة ويقدرونها قدرها في تكوينهم المثل العليا التي يضعونها نصب عيونهم جسدية كانت هذه القوة ام عقلية أم اخلاقية . والبطل الذي يعشقه الرجل المتوسط هو شخص ذو قوة جسدية او حذاقة او شجاعة وهو يتلذذ بمعرفة هذا البطل وبصحبته ويرجو ان يرى نفسه شبيها به ويتمنى ان يكون المجتمع الذي ينتمي اليه موصوفا بالقوة ومظهرا لها « ... ذلك لان الحياة في حد ذاتها هي حركة وصراع وان اعمق الغرائز المغروسة في النفس هي غرائز الحركة والنشاط ثم هنالك نفعا كبيرا يجلبه السعي الجدي في الدرجات الابتدائية من النشوء العضوي والنشوء الاجتماعي فالفرد الذي يطلب النجاح في تنازع البقاء عليه ان يكون قويا وسريع الحركة وهذا هو حال الجماعة ايضا . والحياة محفوفة بانواع الخطر والصراع حال دائم . وكل ما كان مظهرا للقوة يرهب المخيلة ويأخذ بمجامع القلوب وما يتم الحصول عليه بالقوة وحدها طمع الناس فيه والقوة التي تنيل المرء غايته هي موضع الاعجاب والاستحسان » .

وقال صاحب « المجمل في علم الاجتماع » اما القول بان الراي العام يغلي قدر القوة فوق سائر الاقدار فهو قول يبدو لاول وهلة خطأ لكن نظرة واحدة في الاحكام التي يصدرها المجتمع تقنع المرء رغم انفه ان هذا هو الواقع » .

فهل نحن والحالة هذه على خطأ اذا ما طلبنا لمجتمعنا قوة نعتز بها وذلك بتوحيد جهودنا لجعل لغة التفاهم فيما بيننا على مستوى واحد من الرقي الادبي والعلمي واهلا للأقاة المقتضيات الحاضرة ؟ واذا كان اشراك عظامنا وعضلاتنا واعصابنا في الوقت الحاضر متعذرا فلنشرك عقولنا وأرواحنا ولنوحد صفوفنا توحيدا ادبيا يسير بنا نحو القوة المنشودة .

والدساتير الاجتماعية الاتية متى طبقت على اللغة وتاثير اللغة في الجماعات تطبيقا نزيها دقيقا تنير الموقف وتفتق الذهن الى العمل الواجب تحقيقه :

(اولا) دستور العطف وهو « تزداد درجة الاشتراك في العواطف بازدياد الشبه » بين الافراد والجماعات . فالبيض في بلاد السود مثل السود في بلاد البيض يتداعون ابناء العمومة والخؤولة . ولو كانوا من بلاد على طرفي نقيض من سطح الارض . والغربيون في الشرق كالشرقيين في الغرب اشد التحاما واقرب تفاهما ولهم جمعياتهم المعينة وانديتهم الخاصة . « والمصالح العامة والمشاعر المشتركة » كما قال المجمع في علم الاجتماع « تقرب الناس بعضهم من بعض وتزيد في عطف الواحد منهم على الاخر . والشعوب التي هي على درجة واحدة من الثقافة تتولد فيما بينهما مصلحة عامة فعواطف مشتركة . وروابط العطف بين الافراد المجتمعين على مستوى واحد والمشغوفين باعمال واحدة هي اقوى بكثير منها بين اناس تبدو فيهم الاختلافات الواضحة في الاخلاق والثقافة والحرفة » .

(ثانيا) دستور التقليد وهو « اذا لم تقم الموانع فالتقليد ينتشر بنسبة هندسية » يعني على معدل اثنين فاربعة فثمانية وهلم جرا بمضاعفة العدد اللاحق للسابق . وهذا الدستور على اعظم جانب من الخطورة في تدرج الاقوام والجماعات . وكما ان الطفل يكتسب في سنيه الاولى جميع عاداته تقريبا وجزءا كبيرا من معرفته ايضا بواسطة التقليد فكذلك الجماعات ولا سيما في ادوارها الاولى . واللغة واسطة من اقوى الوسائط لنقل الاوضاع والمدنيات من جماعة الى اخرى بالسرعة العجيبة . ولا شك ان الصلابة القومية او مقاومة الاندفاع في التقليد هي صفة جوهرية لحفظ الميزات الخاصة في الجماعات ورمز للقوة المكنية المستترة في النفوس ولكنها متى افرطت فصارت يبوسة بحيث يقف القوم في وجه كل تغيير مستمار باعتباره « بدعة » ولو كان ركوب السيارات بدلا من الحمير فالجمود او الانكسار امر لا مفر منه . وقد راينا في هذا الشرق امما اندفعت في تيار التقليد كما جمد غيرها على جلاميد المحافظة وكلاهما لا يدل على جهاز عصبي صحيح لان الحياة الاجتماعية المتدرجة لا يتحلى بها الا من كانت له عقلية ذات كيان منفرد من جهة وذات مرونة متكيفة من جهة اخرى .

والدليل على انتشار التقليد بنسبة هندسية هو مسالة رياضية مضبوطة فلو فرضنا ان زيدا من الناس احدث طرازا جديدا في الطعام او في اللباس او في الراي فقلده فيه عمروا — لا زيدا وحده — يصبحان مصدرين مستقلين للتقليد سيقلد بكر زيدا ويقلد خالد عمروا وهكذا نصبح لدينا اربعة مناهل للتقليد يردها اربعة اخرون فيكون مجموع المناهل المستجدة ثمانية وهلم جرا طبقا لمتوالية هندسية .

وهذا الدستور يفسر السرعة العجيبة في انتشار الازياء الحديثة والافكار الحاضرة . ولو لم يتغير التقليد بتغيير الامم التي يمر عليها كما يتكسر النور بحسب المادة الشفافة التي يخترقها لكان التدرج في الاقوام بطيئا لذلك راينا الدين الواحد في بعض الاحيان مختلفا باختلاف الاقوام التي آمنت به .

والشيء العملي في هذا الدستور هو ان توحيد الثقافة في اقطارنا العربية ليس من الصعوبة بالمكان الذي يتراءى فيه بل كلما اكثرنا من مناهل التقليد قربنا اليوم الذي تتشابه فيه المشاعر والافكار وتتحد المثل العليا .

(ثالثا) دستور العمل الاجتماعي الاندفاعي : يشبه هذا الدستور دستور التقليد من حيث انه ينتشر ويشتد على نسبة هندسية والمثال البارز عليه هو الفزع الاكبر

الذي يستولي على الجماعات في الحروب والمجتمعات والطرقات فيختلط فيها الحابل بالنابل ويدوس القوي من تزل قدماه من كثرة الرعب او من شدة الازدحام . وغني عن البيان ان للتقليد شانا كبيرا في مثل هذه الاندفاعات وللغة القدح المعلى في صوغ الجمل التي تلعب بالعقول ونظم الافكار التي تحرك الجامد . ولا يدري احد بالضبط قيمة الدور الذي مثلته الجمل الاتية في الانقلابات « لا ضرائب من غير تمثيل » « الحقوق الطبيعية » « اعلاء كلمة الله » « فلتحي فرنسا » «المانيا فوق الكل» وربما لعبت دورا مثلها كلمة الدكتور ويلسون « تقرير المصير » .

(رابعا) دستور الشعور بالنوع : وخلاصته ان الافراد او الجماعات متى اضافوا الى وجود الشبه القائم بينهم الشعور بهذا الشبه والاحاطة به وبالعطف المتولد منه ازدادوا تقاربا وتلاحما . ويدل هذا الدستور على خطورة المساعي التي تولدت من بث الدعايات بواسطة الصحف والمنابر والجمعيات لاظهار الشبه النوعي في الاقوام المنتشرة والعطف المتبادل بينها كما فعلت « الجامعة الاسلامية » في بلاد الصرب مثلا . وكلكم تذكرون الدور الخطير الذي مثلته في حمل الروسيا على اعلان الحرب على النمسا بعد مقتل فرديناند ولي العهد لانه كان العقبة الكاداء في سبيل الاتحاد السلافي .

(خامسا) دستور البقاء وهو « تزدهر الاوضاع او تذبل بحسب تكيفها لمقتضيات الحياة المحيطة بالشعوب» فالعربية التي تعيش في وسط العلم المادي والانقلابات الاجتماعية ولم يتفق ابناؤها وهي سجل ثقافتهم على المصطلحات البسيطة الدالة على موازين الحرارة والرطوبة والهواء والكهرباء ولم تنبس معاجمها ببنت شفة عن اجزاء القطرات وادوات المراجل والمحركات ولم تشر لا بالتصريح ولا بالتلميح الى مذهب النشوء والارتقاء وناموس الجاذبية ودستور التحام الاجزاء المفردة ناهيك بالجراثيم ونظاراتها والطعوم ومناعاتها وما نشا عن ذلك من الانقلابات الخطيرة في العلوم البيولوجية — ان هذه اللغة التي تعيش على هذا النمط من العزلة في هذه الاوساط الجذابة من غير ان تدون خصائصها ولا تسجل في صحائفها اسماء الانقلابات الاجتماعية الخطيرة المحيطة بها من راس مال واشتراكية وشيوعية وفوضوية وغير ذلك من المذاهب الاجتماعية الصالحة او الطالحة — لهي لغة يحاول ابناؤها بكل ما اوتوه من قوة وعزم ان يخنقوها ولكن من خنق لغته فقد خنق نفسه لان هذه اللغة هي اداة التنفس الوحيدة للادمغة .

لقد حوت اللغة العربية في الاعصر الخالية ادق حالات النفس واوصاف الطبيعة وما عليها من المخلوقات الكبيرة والصغيرة كما عرفها الجاهليون واستوعبت وهي لا تزال على بداوتها في اوائل الاسلام حكمة الهند وفارس ويونان فمن المستبعد ان تعجز بعد مرور هذه القرون الطويلة في الصقل والتهذيب عن استيعاب التطورات العلمية الحاضرة الا اذا اصر ابناؤها على الاستخفاف بخصائصها وما تمتاز به من صيغ عجيبة في البناء والتركيب .

ان في الفاظنا وفي كتبنا وفي معاجمنا الفاظا بالية تمثل الاعضاء الاثرية في المخلوقات الحية تكاد تتلعثم بها السنتنا وتنوء بها صحفنا ومطابعنا ونحن احوج الناس في يومنا هذا المزدحم بالمتسابقين الى من يسرع خطانا واننا نقر في الختام ونعترف بان عبء المدنية ثقيل وان الذي يتتبع قافلة الحضارة وهي في سيرها المديد من ابواب الكهوف التي سكنها الانسان الاول حتى رتج القصور التي يسكنها الانسان الحاضر يجد وراءها اكواما من احمال مبعثرة على الطريق كانت تحملها لتوصلها الى اسواقها فلما اصبحت هذه الاحمال بضاعة مهجورة مزجاة القتها عن عاتقها تخلصا منها لان وعثاء السفر شديدة والطريق طويلة معوجة مظلمة قد حار فيها الادلاء . والرجل كل الرجل هو الذي لا يترك من الماضي الا ما اثقله ولا يحمل من الحاضر الا ما سهل له سبيل السفر .

بعض ملاحظات عملية تستنتج من الكلام المتقدم لاجل تقوية اللغة العربية والاخذ بيد ابنائها ؟

(١) عقد مؤتمر دوري عربي في الاقطار العربية لاقرار المصطلحات وسن الخطط اللازمة .

(٢) تكاتف المجامع العلمية العربية بالمراسلة وانتخاب من يمثل المجمع الواحد منها في المجمع الاخر .

(٣) تبادل المعلمين وتزاور التلاميذ كما هو الحال في اوربا واميركا .

(٤) الاعتماد على مؤسسة صحفية لتأييد التعاون ونشر المباحث المشتركة .

(٥) اعطاء جوائز للمبرزين في اعمال التقريب والتعاون .

(٦) السعي الجدي في توحيد برامج التعليم .

(٧) تسهيل الاسفار بين هذه الاقطار في ابن المؤتمرات وسائر المواسم المؤدية الى توثيق الروابط الادبية .

(٨) تأسيس مكاتب عامة في عواصم هذه الاقطار تقتصر على الكتب والصحف المتعلقة بهذا الموضوع .

« خاتم مكتب الاستعلامات السوري بالقاهرة »

دمشق — سعيد ابو الحسن

الجبل الخالد

من ديوان « ألوان وألحان » الذي يصدر قريباً

زكي قنصل

*

حام قلبي عليك يا لبنان ... اسها عنه أم لها رضوان
لا تحول عينيك عني ، فاني ... بمغانيك هائم ولهان
هزني في رباك للحسن عرس ... دائم ، واستفزني مهرجان
فامتطيت الخيال يدفعني الشوق ، والشوق مقلة ولسان
يشهد الحب لم أغب عنك يوما ... كيف ينأى عن أيكه الكروان
انا بالروح حاضر ، فاعيدي ... يا عصافير ، وارقصي يا قيان
كل حد ينهار مهما تعالى ... حين تدعو غيابها الاوطان
من وراء البحار صوتك دوى ... فانتشى الورد وازدهى الريحان
وطن الشعر والهوى لا تلمني ... ان عصاني فيمن احب بيان
عقدت غربة اللسان لساني ... واهواني اذا درى عدنان

يا ابا الضيد يا مليك الجبال ... ما سلاك النزاح ، هل انت سال
لم تزل في قلوبهم أملا يزهو ... ونورا يجلو عبوس الليالي
كل شيء الى الزوال ، وتبقى ... شامخ الانف رغم انف الزوال
تتحدى الرياح هوجاء غضبى ... وترد النبال تلو النبال
انت بكر الزمان .. لا تزه شمس ... بسناها ، ولا يطاولك عال
قد ملأت الوجود عزا ومجدا ... ووصلت الاجيال بالاجيال
كلما مات في النفوس رجاء ... بعثته يداك غض الجمال
خصك الله بالنضارة ، فالبس ... بردة الشمس واعتصب بالهلال
انت اعلى شأنا واغلى مقاما ... في ضميري من كل عال وغال
حسد الدر رمل شطك فاعجب ... للآلىء يحسدن قدر الرمال

فتية الارز بارك الله دارا ... ولدتكم غطارفا احرارا
زودتكم منذ الطفولة بالعزم ... فكنتم جناحها الطيارا
ماؤها من منابع الخلد يجري ... في دم الشاربيه نورا ونارا
فتحت صدرها لكل شريد ... لم يجد عند غيرها مستجارا
واباحت للطارقين مجانيها ... فاغرت بها بعيدا وجارا
غزت الارض ، لا بحد حسام ... يحسن القتل او يجيد الدمارا
بل غزتها بالحب فانتشر الامن ... يمينا وسار فيها يسارا
واتتها بالحرف في حلك الليل ... فماجت آفاقها انوارا
يا عقولا تطير شرقا وغربا ... وترود الشموس والاقمارا
انت لولا قدموس كنت ظلاما ... فاخشعي دونه وغضي وقارا

فتية الارز ، قدسوا الارز رايه ... واجعلوه للحب والحق آيه
غرسته يد العنايه قدما ... فاحرسوه وسبحوا للعنايه
لا تناموا عن ماكر او دخيل ... يظهر الود وهو يخفي النكايه
رب شر مستفحل مستطير ... فجرته وشايه او سعايه
خسىء الطامعون فيه ، وخابت ... دعوة ترتدي قناع الوصايه
هيكل الرب شيد منه وشدت ... سفن وزعت دروس الهدايه
رافق الدهر منذ كان غلاما ... وسيبقى رفيقه للنهايه

لا يته كابر عليكم بماض ان لبنان في الحضارة غايه
من شواطيه ابحر العلم آسا لم يكن في الوجود غير العمايه
وعلى ارضه الزكية اعلت .. الشعر الف الف بنايه

حدثيني يا حلوتي ، حدثيني فلقد ينقع الحديث حنيني
حدثيني عن عهد حيرام حينا ثم ثني بعهد فخر الدين
لا تقولي لكل عصر رجال بسمة الشمس حلوة كل حين
انقليني على جناحك ، اني اشتهي ان اطير ثم انقليني
كان لبنان للسلام رسولا وسيبقى على ممر السنين
كان اهزوجة على شفة الحب وطيبا يهب من صنين
تتلاقى الاضداد فيه وتمشي دغوة الشك تحت ظل اليقين
ليس فيه لابن الامير امتياز يتعالى به على ابن الهجين
جنحته فينيقيا واصطفته بنت عدنان للبيان المبين
فهو بين السماء والارض جسر ورباط ما بين عرب وصين

ايه لبنان ، يا سياج الحضاره كل ربح لهاجريك خساره
ما اعتزازي باتجاه وهو سراب يخدع القلب ، بل يزيد اواره
ما انتفاعي بالمال ان هو افضى لهواني ، ولفني بالمراره
ان موتي بوابل من جمان مثل موتي بوابل من حجاره
راحة البال فوق كل ثراء وصفاء الضمير خير تجاره
هب بنينا القصور قوراء شما ورفعنا لكل قصر مناره
ومرجنا جدرانها باللآلي وفرشنا دروبها بالنضاره
اي جدوى منهن يرجو غريب حرمته غوائل الدهر داره
قد حسدنا على سفوحك كوخا واشتهينا الى ثراك زياره
افيروى غليلنا ام سنقضي في مهاوي آمالنا المنهاره

من لقلب مجرح ليس يهدا ذاب شوقا الى الربوع ووجدا
لم يخيب لمسقط الراس ظنا او يضيع لرفقة الدرب عهدا
عاش عن مهده شريدا طريدا فتمنى في سفح صنين لحدا
يا مليك الجبال حياك ناء ليس يرضى بغير ودك ودا
يشكر الله .. ، ثم يزجي لك ـ .... ـ شكرا وحمدا
غمرته يداك بالرفد لما لم يجد في خزائن الارض رفدا
قلت اهلا فردد النجم اهلا وترامى على طريقي وردا
انكرتني الربى ، فطيبت نفسي وجفاني الكرى فوطات مهدا
يا مليك الجبال تاه قريضي باسمك الحلو واكتسى منه بردا
لست عني ، وان نايت ، بعيدا يصل الحب ما التباعد قدا

حان يا قلب ان نعود اليه حان ان نرتمي على شاطئيه
عبثا ننشد السعادة ان لم يتفجر عطاؤها من يديه
عبثا نرقب الصباح اذا لم يتلالا سناه من عينيه
قم بنا ايها المشوق المعنى نتوكل بعد الاله عليه
اونخشى عليه عبئا خفيفا وهموم الدنيا على كتفيه
ما لصنين في الشوامخ ند عانقته السهى ونامت لديه
بش وجها لقاصديه وطابت نغمات الهوى على شفتيه
ليس هذا البياض ثلجا ولكن هو تاج العلى على مفرقيه
لا يفاخره بالضخامة علج ان قدر الانسان في اصغريه
سوف تفنى الجبال يوما ويبقى وحده واقفا على قدميه

بوانس ايرس ـ الارجنتين

زكي قنصل



نقولا يوسف

امسية مع نقولا يوسف

بقلم ايليا حليم حنا

***

رحل الاديب الصديق الودود « نقولا يوسف » عن عالمنا في ابريل ١٩٧٦ . وقد عاش زاهدا متصوفا في محراب الادب ، متواضعا بعيدا عن الغرور .. عاش مخلصا لقلمه حتى آخر انفاسه . بدأ حياته مدرسا وتقلد عدة وظائف تربوية تركها لان نزعته الادبية التي لم تتخل عنه بالرغم من مشاغل الوظيفة ، كانت تزداد وتطغى بمرور الايام ... استقال ليتفرغ للدرس والبحث والكتابة .

كان نقولا يوسف اديبا اصيلا متعدد الجوانب ، جرى قلمه في كل فنون الادب باستثناء الشعر المنظوم .. كتب الرواية الطويلة والقصة القصيرة والتراجم وكان ناقدا ممتازا ومؤرخا محققا مدققا . كتب الابحاث والمقالات والقصص في عديد من الصحف والمجلات منها: السياسة . والاهرام . والمجلة الجديدة ، والقاهرة . والمساء ، والعالم العربي ، والاديب ، والمصور : والادب. والبصير ، والادب الحي : والاهداف ، والطالبة . ودمياط . واخبار دمياط ، والغربال ... جاهد بقلمه في سبيل الخير والحب والانسانية والوفاء ، والصداقة .. كتب في التجديد والاصلاح والتخطيط والسلام العالمي والنقد والادب والتاريخ والتراجم والقصة ، وتميز في كل كتاباته بالاصالة والاخلاص والدقة ، وكان يرى ان السياحة لا تقل اهمية عن الاطلاع الكثير لنضج الاديب وتفتحه فطاف بعدة دول منها : سويسرا وفرنسا وايطاليا واليونان وتركيا ولبنان وفلسطين بالاضافة الى تجواله في معظم المدن المصرية .

شغل النشاط الادبي كل وقته وملأ حياته .. الف وترجم العديد من الكتب والقى المحاضرات وشارك في نشاط عدد كبير من الجماعات الثقافية ، وله العديد من الكتب والابحاث والدراسات التي نشرت في الصحف والمجلات ولم تجمع .. وهو بالاضافة الى هذا كله صديق قديم لعدد كبير من الادباء العرب والاوروبيين ، فكان يتراسل مع الكثيرين منهم حتى وفاته . وكم كانت رسائله الي مصدر سعادة كبيرة لي ، كنت ارقب وصولها واجلس اليها استمتع بما فيها من ود صاف ، وادب عال وفكر ثاقب ، ولمحات وضاءة ودعابة حلوة ، وتواضع جم . وسأفرد لهذه الرسائل القيمة الثمينة ـ التي اعتز بها ـ مقالا اتحدث فيه عن نقولا يوسف الانسان والاديب من خلال رسائله .

عرفت اديبنا الكبير نقولا يوسف قبل ان نتراسل باكثر من ثلث قرن وكنت اذ ذاك طالبا في نهاية المرحلة الثانوية ، قرات له « الفردوس » وكنت وقتها مفتونا باسلوب جبران والمنفلوطي .. وتابعته في مقالاته العديدة وقصصه بالمجلة الجديدة التي كان يصدرها سلامه موسى .. واعجبني في كتاباته الناحية الانسانية التي جند لها قلمه بقوة في ذلك الوقت .. وقرات له « من الاعماق » الذي ترجمه عن « اوسكار وايلد » ثم التقيت به في قصته الطويلة « الهام » قراتها عام ١٩٦٥ وعاودت قراءتها هذه الايام .. وامضيت معها امسية ممتعة وكانني اتجول في حديقة غناء بها كل ما تشتهي النفس ويبهج العين .. كلها ورود وزهور من جميع الالوان والانواع ، لها عطر تنشقه النفوس والافئدة . كتبها اديبنا وهو شاب في عشرينات القرن الحالي ونشرها عام ١٩٣٧ . والقصة بها سمات السيرة الذاتية وهي تقف في صف « ابراهيم الكاتب » للمازني و « سارة » للعقاد ، تحكي الكثير عن تجارب وذكريات وخطرات وخلجات صاحبها .. انها صفحات من تاريخ انسان عاش للادب والفن والقيم الانسانية ، تدل ابلغ الدلالة على ثقافة المؤلف الغزيرة وعلى ما وهبه الله من دقة في الملاحظة والتعبير ، يلقي فيها النظرات الصائبة العميقة على كل ما شاهده واحس به وتعلمه وفكر فيه : وجربه

... كشف لنا فيها عن حقيقة الاديب الفنان بريشة الفنان المفكر، وابرزها في لوحات حية ناطقة. ترسم بصدق شاعري ما يعتمل في النفس من حب واخلاص وحقد، ورقة وعنف، وصدق وصراع؛ وشراسة ولين، وقبح وجمال، ومادية مسرفة وروحانية سامية وملء وضحالة، وما يحرك الانسان من معتقدات وقيم.

عشت مع بطلي القصة (فريد) و(سمير) ومع بطلاتها (الهام) و (ايزيس) و (سعاد).. وكنت اعيش بحق مع نقولا يوسف الاديب الشاعر الفنان في شبابه؛ اعيش في فكره ووجدانه. واعتقد انه ظل يؤمن بالكثير مما كتبه في هذه الرواية، فان التكوين النفسي للاديب يبدأ في شبابه، ولا انكر ان للسنين فعلها ولا بد انها عدلت الكثير من تحليقاته على ضوء تجاربه وخبراته، وقد بدا هذا واضحا في مؤلفات اديبنا الاخيرة التي اتسمت بالرصانة والواقعية والبحث والتدقيق.

لست في هذه الامسية اتحدث عن (الهام) كقصة وانما اردت ان نعيش في شباب اديبنا الكبير، مع تجاربه وذكرياته وافكاره ونظراته الى الحياة والناس.

والهام عمل فني متكامل يتناسق فيه جو الخواطر الشعورية مع موسيقا العبارة مع الظلال التي يلقيها التعبير.. وهي معايشة كاملة لاديبنا في نظراته ومثله وصراعات نفسه ورايه في المرأة والبيت كما يريدهما، والحب كما يراه. فيها يفصح عن اعماق الاديب وصراعاته على لسان شخصين هما (فريد) الاديب الفنان المثالي الذي يهيم في عالم القيم العالية، وصديقه (سمير) الذي يعيش مع الناس على الارض، يفكر فيما يفكرون ويريد ما يريدون.

«كان فريد منقطعا للدرس والتحصيل يقرأ بنهم ويدمن المطالعة. كان لا يشفق على عينيه ولا بدنه. كان ينهل من آراء القدماء والمحدثين، يقطع الليل ساهرا مع كتبه، وكان يجد في التفكير عبادة، وفي الملاحظة لذة متجددة.. كان يحمل هموم الانسانية على راسه. وهذه الهموم تزيده اصوقا بالمجتمع. فيتحمل من اجله الهوان والعذاب.. في اعماق روحه صراخ هائل محبوس. كان يخرج احيانا كاللهب الرائع.. كانت الليالي توحي اليه انه اتى الى العالم برسالة عليه ان يؤديها ويتألم بل يموت من اجلها».

«اما صديقه (سمير) فقد شغل بحاله ومتعه ولم يعد يفكر الا في لذات جديدة تنمر حاضره وتنسيه ماضيه. وانطلق يعيش عابثا مستهترا قانعا بذلك القدر من التعليم السطحي والاطلاع التافه، ولكنه بذلك التفكير المحدود وبذلك الجانب من الذكاء الطبيعي فيه كان يعرف كيف يتانق وكيف يلهو وكيف يتمتع بمباهج الدنيا ولذاتها».

ويضايق سمير صاحبه فريدا بالسخرية الدائمة من أهل الشعر والاحلام.. ويقول له ان المادة هي كل شيء، وينصحه الا يسخر منها كما يفعل الخياليون. ويظهر كاتبنا صراع الاديب بين متطلبات النفس المادية وقيمها الروحية في حوار يجريه على لسان بطليه:

سمير: اريد ان تهبط الى ارض الحقيقة وتستمتع معي بالحياة هازئا بها بدلا من ان تنفق ايامك في هذه الكآبة وهذا الضجر.. اسارير وجهك وشحوب لونك وانقباضك عن الناس كل ذلك ينم عن نمط شاذ تحياه.. اراك تعيش في حانوت كتب بل في قفص حجري صنعته لنفسك. وانا ارى لك ان تنطلق مثلي في الفضاء الوسيع فتزيد تجاربك لا من سطور الكتب العابسة ولا من افكار المؤلفين المتناقضة بل من صميم الحياة. اريد ان اريك صور الوجود خارج صومعتك ضاحكة مشرقة لا تبالي بك ولا بكتبك.

فريد: تريدني ان انبذ هؤلاء الاحياء بافكارهم، الخالدين بمبادئهم، الذين يعيش العالم عالة على ثمار عقولهم وتتطور الحياة بفضل جهودهم لاسرح وامرح مع فارغي العقول ممتلئي البطون ممن يطفون كالزبد على وجه المحيط! ومع ذلك لا تستطيع انت الثري العابث ان تعوضني عن هذه اللذة البريئة التي اجدها في ساعاتي بين كتبي، فهي خير لي من لياليك التي تنفقها في البطالة والعبث والتنقيب عن لذات جديدة لجبل غال ارى فيه الناس اقزاما واراك انت وامثالك تنفقون ايامكم فيما لا ينفعكم ولا ينفع غيركم من الناس، فانتم لا تعملون على تطوير نفوسكم وتوسيع مداركم ولا تسهمون في خدمة الانسانية وارتقائها، بل انتم تسخرون العالم في سبيل اثرتكم وشهواتكم..

لقد قلت لك غير مرة اني اؤمن بالحياة وبالجمال وبنتاج الحضارة واتتبع بشغف تطور البشرية، وما عزلتي وانقباضي عن الناس الا فترة لا بد منها للتحصيل والدرس لاني مزمع ان اخرج الى العالم عن قريب حاملا رسالتي ونتاجي.

في هذا الحوار يتضح ان كاتبنا يريد ان يقول ان قيم الاديب ومثله لا تحول دون التفكير في نفسه ومادياته، وان الانسان كائن عضوي بقدر ما هو كائن معنوي. ويريد ان يقول ايضا انه بالثقافة والتراث المعنوي يستطيع ان يسيطر على كيانه العضوي ولكن لا يمكن ان يلغيه.

ويقدم لنا كاتبنا المحتوى الفكري للاديب وموقفه

الخاص من العالم وطبيعة رؤياه . ولا اشك في انه كان يصور ذاته واعماقه ويعبر عنهما وهو يحدثنا عن رسالة الاديب الفنان في حديثه عن (فريد) بقوله : « انــــه اديب فنان والعمل الذي يتفق مع طبيعته هو الدفاع عن الحق والعدل والجمال .. بالقلم ينفس عن نفســه ذلك البركان المسدود ، يتخذ من قلمه معولا يهدم به تلــك الخرائب المكدسة في بلاده ، يتخذ منه مكنسة يجرف بها تلك الاقذار والرمم الملقاة في طريق نهضتنا ، يناوىء به الرجعية البشعة الوجه وذلك التعصب الاعمى للتقاليد البالية والتشبث بالقديم بلا تفكير ، بقلمه يخط سبل الاصلاح والتجديد في الاجتماع والفن والادب والحياة وبدافع عن الحرية .. لقد خلق فيه الله من الشعور ما كان سبحانه يريد ان يوزعه على مائة غيره ، وهــو يحاول تكبير مسائل الحياة ويراكمها بعضها فوق بعض حتى تعلو كناطحة السحاب .. يحمل هموم العالم فوق رأسه ، وكثيرا ما يسير مطاطىء الرأس لان تلك الهموم تثقله كما يثقل الشعير السنبلة . انه يحلم باصلاح العالم ذلك المريض المزمن الذي عجز عن شفائه عشرات الانبياء والمرسلــين !... ويحلم بتوحيد اوطـــانهم ولغاتهم واديانهم. »

واری ان ادیبنا الكبير كان يعبر عن نفســه عندمـا كتب هذا فان معظم كتاباته التي قرأتها له ابان الشباب كانت تدور حول : البشرية ـ المدينة العالمية ـ السلام ـ اللغة العالمية ..

لقد تجمعت في (الهام) كل اتجاهات نقولا يوسف الفكرية وآراؤه في الحياة والناس .. والمرأة . من هي المرأة التي تفوز باعجاب الاديب ويراها جزءا من كيانه الفني ؟ انها (ايزيس) احدى بطلات القصة : «شخصية محببة تعرف كيف تصغي وكيف تجلس باعتدال وظرف وهدوء ، واذا وقفت فبلباقة وبغير تكلــف ، وهي في اشارات يديها وحركات قدميها تعبر في جلاء عما اعطيت من موهبة التوازن وضبط النفس .. فتاة ذات شخصية غير عادية ، لها فم طفل ساهم حالم كثيرا ما تزينـــه ابتسامة حلوة .. قامتهــا ممشوقة تشبه الزهرة في اكمامها .. لها صدر ناهد بديع وصوت حنون كأنغـــام الناي يترك من صداه رنينا يتلاشى متباطئـــا في قرارة القلب .. فتاة تمر امامه كالطيف او تحنو عليه كالام ، لا ترى لها وجودا خاليا من الموسيقا يتصاعد غناؤهـــا او صلاتها كانه بخور يحترق فوق هيكل يوحي بشذاه الغامض وباسراره المبهمة الى الفضاء فيبعث الشجـــن ويصقل النفس ويعير الخيال اجنحة من نور . وكان قلبها يفشي اسراره في تلك الالحان ويفصح عن نفسه باسلوب ليس لكل سامع ان يفهمه .. فيه شيء من الانكسار وفيه شيء من الكبرياء ، فيه تمرد وفيه عشق الحياة والنظرة الشاعرة لما في الحياة من رواء وعمق ، وفيه ألم دفـــين وكآبة تنبعث من روح غامضة .. وليست (كسعاد) التي بالرغم من رشاقتها وخفة روحها وسمرتها الجذابـــة وانوثتها الناضجة ، لم تثر فيه اي ميل .. هو لا يرى فيها تحقيقا لتلك المثل النسوية العليـــا التي تتجلى في مخيلته حين يقرأ ويكتب ويتأمل » .

والاديب الشاب لاعتكافه وحياته وكبته ما يجيش في نفسه من ميول الشباب وما تحركه فيها حيويته القوية ولما له من قوة الخيال وملكة الشعر يحلم في احايين كثيرة بالمرأة لا بامرأة معينة بل بالمرأة ككائن جميل عجيب يملأ فراغ وحدته ، ويغذي احلامه ، يكمل ذلك النقص الذي تحس به نفسه ويتعطش اليه خياله .. يتسمع اصداء صوت تلك المرأة التي تنتشل نفسه الحائرة من ضبابة المادة الى اثير صاف تتطاير فيه باجنحة من نور ونار .. هذه هي المرأة التي تخلب لب الاديب الفنان وتلهمه ..

والبيت ؟ انه محرابه المقدس .. يحيا في هيكلـه المزدان باعمال الفن في جو ملؤه السحر ، تهدأ فيه اعصابه من ضجيج المدينة وصخب الناس ، ويبتعد فيه قليـلا عن ذلك القلق الجنوني وتلك الحركات العصبية والملامح الملتوية التي تبدو حوله في وجــوه الناس واعمالهم .. هناك يقضي وقتا في الهدوء والصمت والتأمل والقراءة والتمشي في الحديقة ، وهناك يغوص في باطن النفس ، ويحاول معرفة نفســه ومحاسبة روحه ، ويجتهد ان يتخذ لوجهه وجــده ذلك الاتزان وتلك الوداعة والرصانـــة والهدوء ليتطبع بها وليقف مثل برج شامخ هادىء وسط العواصف حيث يتساقط عند قدميه الوف المجانين مثل هشيم تذروه الرياح .. انه من ذلك الصنف الذي يحب البيت والهدوء في سكن منظم مرتب يشرف على تنسيقه زوجة جميلة مدبرة تملؤه حياة وبهجة وتخلق حوله ذلك الجو الهادىء الذي تتطلبه نفســه .

والزواج ليس قيودا او اغلالا ، وليس فيه استعباد او استرقاق ، انما هو اتفاق او شركة ... والحب وان كان ضروريا للحياة الزوجية فانه ليس كل شيء اذ لا بد من التفاهم المتبادل والايثار والمرافقة بين الزوجين وخير الزوجات من لو كانت رجلا لكانت صديقا وفيا لزوجها في رخائه وشدته .

ويحدثنا عن الحب على لسان « سمير » فيقول ان كلمات الحب المنمقة كلها من املاء الساعة ولا تلبث ان تتلاشى كالدخان .. والحب التهاب اللذة وعصر تسل زهرة .. ويقول على لسان (فريد) : « وضعت المقادير في طريقي امراة تحبس افكاري كلها في فكرة واحدة .. وقد رجعت فجاة الى الوراء مثل غر في العشرين يطير في ملكوت اخيلته ، ويزحف على اعتاب حبيبته ! العلها تلك الغريزة الجنسية التي تطغى على خلايا الجسم كله هي التي تطرقني متنكرة لتعبث بافكاري وتلهيني عن عملي وتلهب في دمي جمرة من الجحيم ؟ لقد خلت اني تساميت بهذه الغريزة التي تشغل افكار الناس وتطغى على اعمالهم ، فاذا بي اليوم اسيرها واذا بها تتشكل امامي بصور غريبة ومعان لا تخرج في النهاية عن حب المراة وامتلاك المراة ... لم تعد الفلسفة ولا مئات الكتب التي قراتها تستطيع انقاذي من ورطتي فانا مهزوم ضعيف ! اعترف بضعفي واتمرغ عند باب امراة .

وادينا واقعي في نظرته يرى ان الانسان لا يستطيع ان يعيش بالروح ولا بالاحلام وحدها ، انه يحس بجسده يربطه بالارض ويلصقه بالتراب ويرغمه على السعي لتلبية اوامره ونواهيه . الحياة عنده روح ومادة ، شعر ونثر ، عقل وجنون .

ويرى أن للحياة اكثر من غاية ومن دافع واحد عند الانسان ، فروحه تسوقه الى ان يتطور ويسمو ويناضل ويزداد محصوله ، وجسمه يسوقه الى ان يلهو ويعبث مثل طفل كبير .. انه يسير وراء مبادئه ويدعو اليها متحملا العذاب ، معتقدا بأن الغاية من حياته هي الارتقاء بنفسه وبمن حوله من الناس ، وهو ايضا يسير وراء الجسد ويبحث في الاعماق عن لذات قشيبة ليغرق في امتع الوان النعيم .. مرة يقوي فيه الروح المتجدد واخرى ينشط الجسد الاناني الذي يتطلب كل يوم ما يشبع نهمه من الماديات الزائلة .. ان الروح والجسد يتلاقيان في كل انسان .. والنفس البشرية لا تخلو من فضيلة مستترة او من جملة فضائل تطفو وتغرق في القلب الانساني البعيد الغور حتى عند الانسان الذي لا يرى في الحياة غير ذاته ولذاته » .

ترى ماذا كان رأي اديبنا الكبير في المراة والحب والحياة والناس بعد اربعين عاما من كتابة (الهام) بعد ان ولت عواطف واحساسات الشباب وجاءت الشيخوخة بنضجها وواقعيتها ؟ ويجيبنا صديقه الاديب الكبير محمود تيمور في كتابه « مناجيات الكتب والكتاب – ١٩٦١ » عن ذلك بقوله : « استهل الاستاذ نقولا يوسف حياته الادبية شاعري الروح ، عاطفي النزعة ... بيد ان شاعريته في شبابه لم تكن زبدا يذهب جفاء مع سيل الايام وانما كانت شاعرية عميقة اصيلة لا تنضب ولا تزول .. لقد اذعن صاحبنا للحياة في ظاهر امره ، وبدا فيما يكتب واقعيا لا يحلق في آفاق الاخيلة .. الا ان شاعريته استخفت من وراء ذلك تتخذ من هذا التصوير الواقع منفذا الى سخرية واستخفاف وتحرص على ان تكشف اللثام عما في الدنيا من غرائب المفارقات والنقائص وعما تحويه من زيف وتمويه وصغار » .

وفي (الهام) يبدو حب اديبنا الراحل للدراسات التاريخية .. تلك الابحاث كانت بذرة في هذه القصة ، نمت وترعرعت وبدت قوية شامخة في انتاجه الضخم الاخير الذي كرس له معظم جهده والتي قرأنا منها « اعلام من الاسكندرية » و « دمياط منذ اقدم العصور » لقد تحدث كثيرا في « الهام » عن مصر القديمة ، ايزيس ، الفيوم ، دمياط .. تناول هذه كلها باسلوب جذاب جعلها تتحرك وتنبض بالحياة وتكاد تراها وتحس بها على سن قلمه .. لقد ذكرني استاذنا نقولا يوسف وهو يتجول في مسرح احداث قصته « بالسير والتر سكوت » الشاعر الانكليزي المشهور الذي كان اذا اراد وصف جدول ماء مثلا ، قصده ليراه بعينيه ثم رسمه على قطعة ورق بما على ضفتيه من الحصى والاحجار والاشجار وكأنه مصور لا شاعر ثم يشرع في وصفه شعرا يضفي عليه صورة جمالية تبرز من اعماق الشاعر حتى اذا قرا احد ذلك الوصف امكنه ان يتصور الجدول في مخيلته ويراه في صورة اروع من حقيقته .. وقصتنا مليئة بمثل هذه الصور الجميلة التي جعلتني بحق اتوق الى رؤية كثير من الاماكن التي وصفها ، او استزيد من القراءة عما تناوله قلمه المبدع من ومضات تاريخية خلابة .

انني وانا اختم امسيتي هذه مع كاتبنا المبدع ارى ان امسية واحدة لا تكفي فالهام (القصة) كلها صفحات رائعة ونماذج بشرية وصل كاتبنا الى اعمق اعماقها .. وخطرات تسري في مادة حية ، وتخطر في اطار يمنحها الحرارة والحياة .. وبها الكثير مما يجب الكتابة عنه .. هذا بالاضافة الى انها جولة في قلب وفكر صاحبها استاذنا الراحل نقولا يوسف .

لقد رددت كثيرا وانا اقرأ الهاما : هنا قلب انساني يضبطه ويدل على نبضاته ذهن فنان .

القاهرة ايليا حليم حنا



ابن زيدون

شـــاعر الحب الخـــالد

تحية لمهرجان ابن زيدون الذي اقيم في الرباط

الدكتور باقر سماكة

عواطف الشوق نذكيها فتذكينـــا   وصبـوة لم تعـد سرا فتفشينـــا
لواعج الذكريـات السمر ما برحت   وسط الحشاشة في الاعماق تكوينا
والمهمة الشاسع المجهول يبعدنـــا   عنكم باجسامنـــا والفكر يدنينـــا
تحيـة الحـب من بغداد انثرهـا   مخضلة عبقـــت فـلا ونسرينـا
من نهر دجلة من اسحارهـــا اثـر   ينـدى عليها ومن اشهى سواقينا
من النـؤاسي من انفـــاس ...   من كل ما سحـر السمـار راوينـا
من كل مـــا زوق الدنيا ونضرهـــا   من الـف ليلة من ازهى شواطينـــا
للمغرب المشرق الباني شموخ هوى   نزفهـا وبهـا تختـــال ايدينــا

الله يعـلم يا احبابنـــا ولنـــا   عهـد له لم نزل دومـا مراعينـــا
لي عندكم ذكريـــات قد سعدت بها   حينـــا طروبا واشقتني احايينـــا
لقـد تخيـلت جنات النعيم فمـن   صفاتهـــا ان ترى حورا بها عينـا
لانِ سلوتـم صبابـات نحـن لهـا   هيهـــات نصبـح بعد البعد سالينا
وان تناسيتم مـــا مر من متـــع   شقراء اشهى واحلى ما يسلينـــا
هيهـــات بل الف هيهـات احبتنا   نمسي لبعض الذي قد مر ناسينـــا
عيـد المفـارق ان يلقى احبتـــه   بعـد الفراق فمـا احلى تلاقينـــا
عيـد القلوب بعيـد النأي وارفـة   تظلهـا فترى الدنيـا بساتينـــا

يا صفـوة المغرب الطمـاح معـذرة   ان قصر الشعر او ضاقت قوافينـا
وان تهاوت جياد الشعر لاهثـــة   وقبل ميدانكم خاضت ميادينـــا
قـد زاحمتهـا جياد الشعر لا غبنا   اذا جيـادي لها راحت قرابينـــا
وليس مما يثيـر النفس ان يـدا   سمحـاء تعرض اغلى من غوالينـا
ايـا روافـد دنيـا الفكر كم بهرت   روائـــع منـكم رفت بوادينـــا
ويا سراة البيـــان الطلق عفـوكم   اذا بيـــاني لن يستطيـع تبيينـا
فبعض ما عنـدكم مما نـــدل بـــه   وبعض اوصافـه الغراء يعيينـــا

دن الف عام على الفردوس رف جنى   حضـارة أخصبت فيها مفانينـا
فتلـك اندلس الفردوس شاهـدة   عن مطلـع النـور فيها من روابينـا
وتلـك غرناطـة الحمراء داميـة   وجدا على غـابر قد مر يشجينـا
وتلـك قرطبة مـا زال مسجدها   مستوحشـا في حناياه المصلينـا
وتلـك اشبيليا فيهـا قصور بني   عبـاد مما بهـا كانوا سلاطينـا
اما الحديث عن الزهرا وشاعرها   ابي الوليد ـ ابن زيدون ـ فيصبينا
الشاعر العبقري الفذ ما برحت   اشعـار الغر ترويناً وتظمينـا
ولا تزال كما كانـت قصيدتـه   بهجـر ـ ولادة ـ تسبي المحبينـا
(اضحى التنائي بديلا من تدانينـا   وناب عن طيـب لقيانا تجافينـا)
سل ابن جهور عما في خريدتـه   من البلاغـة والابداع ينبينـا
ولابن عبـدوس ما زالت فريدتـه   شغـل الدراسات تحليـلا وتدوينا
سما مقامـا واعلت شانـه صلة   بمحتـد بـاذخ قد جل تثمينـا
رعـاه اكرم من يرعى البنين اب   بر فتقن منه الفضل تلقينـا
يزداد من سؤدد حينـا يبز بـه   اقرانـه يوشي شعره حينـا
لا ادعي ان قرص الشمس تلمسه   يدي وان كان هـذا من امانينـا
او انني ممسك وطفـاء واكفـة   تهمي على جـدب ما عندي فترونا
ولا بباقـة ابيـات انمقهـا   من روض شعري تنسيقاً وتزيينـا
وان اذبت بها روحي وعـاطفتي   فتستحيـل تحيـاتي رياحينـا
ولو جمعت قوافي الشعر اجمعها   وصغت اجمل ما فيهـا دواوينـا
كلا اجـل الف كـلا لن اطيق ولا   قيثـار شعـري ترجيعا وتلحينـا

مـا اروع الشعر ان الشعر موهبـة   مثلى سمت نشـاة جلت وتكوينـا
فيض خفي من الالهـام يمنحـه الـ   باري لبعض الورى قد جل بارينـا
وبورك الشعر ما اعلى مكانتـه   نعليـه عن مارب سقط فيعلينـا
لقـد اضعنـا بداجي الامس اندلسا   ايـام كنـا عن الفردوس لاهينا
دنيـا من المجد والعرفان وارفـة   ظلالهـا اقمرت فيهـا ليالينـا
دالـت ولم يبق منهـا غير غصتهـا   وقد (عدتنـا على كره عوادينـا)
لمـا يزل جرحهـا يدمي عواطفنـا   واليـوم هذي جراح القدس تدمينا
اجل اضعنا حمى الفردوس من يدنا   بالامس واليـوم ضيعنا فلسطينـا
فبعـد آسادهـا العرب الاباة نرى   ترعى بآجامهـا بهمـا صهاينـا
يا الابـاء نفايات الشعـوب على   مرابض الاسـد في الجولان في سينا
انا هزمنـا بتشريـن فلولهـم   من ذا يعيـد الى العلياء تشرينا
انا نسفنـا بتشريـن صروحهم   الا عليـهم اثرناهـا براكينـا

وانتـم يا لبـاب الفضـل يمنحنا   من لطفـه الغمر ما يضفي ويولينا
عذرا فلن ينهض الشعر المهيض بما   حملتمونـا ولا تقوى جوازينـا

يا مهرجـان ابن زيدون خلدت ويـا   ذكرى ابن زيدون اعبـاقا ازيدينـا

بغداد ـ ص.ب ٤٦٧   باقر سماكة

مدرستنا الوطنية الكبرى

بقلم حافظ المنذر

* * *

هم الامة اليوم هو في تساؤلها الحائر المرير : هل احمل الى غدي آلام ودموع حاضري ؟ هل افقد بعد اجيالا جديدة تمر بي وكأنها ليست من نسل ابنائي ؟ هل تستمر الحضارة في صعودها الباسل المنتصر واظل ارقب المشهد الرائع من مكاني في الفراغ ؟..

هذا التساؤل ، هو نذير خطير ، وواعز مثير ، ولنا نحن ان نستجيب ، وفاء لانفسنا ووفاء لابنائنا ووفاء للحياة نثبت انها ما اوجدتنا في مجالاتها عبثا ..

الاحياء في الارض ليسوا الذين نراهم في بتمة غنى ولا الذين يانسون الى طمانينة واستقرار ولا الذين يكتفون بوفرة البقايا في موائد الاحياء .. ان هؤلاء لا تعرف السعادة الحقيقية سبيلا الى قلوبهم، ولا يمكنهم ان يطرقوا بابا من ابواب التاريخ ، وليس لهم مكان من محبة صحيحة او مجد اصيل او خلود يغلب الموت والزمن ... لان دابهم ان ياخذوا ، وهمهم ان يكونوا في مامن من الاخطار، واقصى غاياتهم ان تشبع منهم الغرائز ، فلا يطمحون ولا يخلقون ولا يعرفون متع الحياة العظمى ..

الاحياء في الارض هم الذين اذا نظروا الى الشمس لا يرف منهم امام ضيائها جفن ويقولون لها ليكونن منا نحن يضا ضياء يضاهي بهاء نورك ايها الكوكب العظيم .. واذا تحداهم المجهول صقلوا له الارادة تفتت الصعاب الى ان يتضح وينجلي واذا اغواهم البعيد القصي سعوا اليه بكد لا يرحم وشجاعة تدين لها الاخطار الى ان يغدو طوع اليد غنيمة الطامحين ...

هذا الساح الواسع الرحب الذي هو الدنيا : حيث لا حياة حقيقية الا بالصراع الغالب ، ولا كرامة ولا سعة ولا عز غير ما يفرضه الانسان فرضا في وجوده .. هذه الدنيا ما انقادت يوما الا لمن حازوا الروح الشجاعة المقدامة والعلم الغزير الموجه والعافية القوية القادرة . وهي تدبر اول ما تدبر امام سقم الارواح والعقول والاجساد بجزم حياة لا تستمر ولا ترقى الا بالاقوياء من ابنائها مخلفة وراءها فلول الضعفاء تصرعهم مشقة المسير .

والحياة البادرة بقوى ليس لها حد ، حقق لها عقل الانسان المتفوق تعبيرها الارقى : فاستحال منها الصخب الغبي حركة واعية بانية ذهبت بعيدا في مضمار التصميم والانتاج والتعمير فكانت الحضارة ..

والحضارة : هذا البناء الفخم الجميل الخير : الصاعد ابدا الى علاء بجهد الباسلين من ابناء الانسانية، هي التي تقرر قيمة وجودنا كامة وافراد في موكب الحياة الجاهد الصاعد .. والقيمة في ما ننتج ونبذل مع الراقين بالانسانية الى اهدافها المثلى ... ولا سبيل الى ذلك ان لم نكن اغنياء بالمعرفة اغنياء بالمحبة اغنياء بقوى المادة على انواعها ..

بالبناء اذن ، بناء العقول والارواح والاجساد ، في تصميم شامل وادراك كامل لانبل وارفع الغايات والاهداف ننشيء ابناءنا الصغار ليصيروا انا نساء عظيمات او رجالا ابطالا ترقى الامة بهم سلم الرخاء والمجد وتبني الحضارة نعيما يرتع فيها كل بنيها ...

لهذا الغرض لا غير كانت المدرسة

ولهذا الغرض لا غير وجب على مدرستنا ان تكون م

حياة اليوم ، حيث يتهالك الانسان على التراث المتراكم ، ينهل ويستفيد ويستنبط ويفيد ، ولا يكف عن اخذ وبذل الا بعد ان ينهكه العناء فيسقط وعيناه عالقتان في مورد المعرفة ويداه متشبثتان مكانهما من المدماك ..

حياة اليوم هذه لنا نحن فيها اكثر من دور مجال ..

لنا ان ننهي سيرنا المضطرب الاتكالي البطيء
لنا ان نشق الطريق الصواب
لنا ان نبعث في نفوسنا الطموح
لنا ان تراودنا اهداف الانسانية الكبرى .
لنا ان نحيا

انها خديعة كبرى ، تلك التي راجت في هذه الديار بتوجيه استعمار طويل منوع ، حذر دوما من نهوض وانعتاق ، منذرا اننا بذلك ساقطون في الادهى ، بقصد القضاء على طموح الشعب ليستمر اداة استغلال غبية يجني الطامحون منها ما يطيب لهم ان يجنوا .

وبعد الخديعة اشاعوا فوضى الفكر في دور للتربية ما زالت حتى اليوم تحمل لواء التعليم الحر . يختص كل منها بثقافة وفلسفة ودين ، تعدد مواد التعليم وتحشو وتعقد البرامج ، لتحار عقول يافعة كما يشاؤون لها ان تحار فلا تطمئن ولا تتفق حتى امام ابسط الحقائق .

ان الفكر الاصيل الذي هو نتاج العقل العالم لا يسير في الهدى ولا يصل بنا الى فلاح الا اذا لزم العلم في العقل موضع الاداة فحسب ، وظل العقل هو الواعي السائد الموجه لهذه الاداة .. ذلك لان العلم الذي يطغى على العقل فينا لكثرة وتشعب ما ندخر منه يبطل في هذا العقل قدرته على الاستيعاب النافع والانتاج الخلاق .. فيهبط الى امية احط واغبى من اميته الاولى .. والعقل

عندما يصاب بمثل هذا التشويه يفقد اول ما يفقد قدرة ادراك وتحقيق الصفاء لمعنى الكلمة وغايتها .. فـلا يستوعب من الفكر الا الظاهر التافه ولا ينتج منه الا العادي السقيم الخالي من الروح والعمق والتأثير الموجه الباني .

الكلمة التي تقال ، هذا الاداء الساحر لحرف وفكر وروح ، لا شيء اروع منها ولا أقوى ولا أفعل .. وبمقدار ما تكون من الحقيقة والحق تعرف الحقيقة ويصان الحق ...

واهل الفكر ، اهله الحقيقيون ، يقيمون لقدسية الكلمة معبدا ..

وتكون لديهم الشيء المحرم الذي لا يفاه به الا من اجل الحقيقة تعلن بتمامها والا من اجل الحق يدعى لنصرته على الدوام .. تلك هي رسالة الفكر اطلاقا وما عداها فهو خداع وتدجيل لتسخير مفاهيم القيم ..

الكلمة عندنا يجب ان تكون في الحرمة التي تصونها .. كثيرا ما نطلقها بخفة رعناء لا حس بمسؤولية ولا رادع من ضمير .. فهوى مستوانا الذهني الى الدركات السفلى وحل الفكر السياسي في احطها جميعا ليمضي بنا بعيدا في فوضى التقدير وميعة التعبير ... فصار الخبث دهاء والنفاق مرونة والدس حنكة .. وانهارت مع الكلمة كل مقومات الاخلاق بتخريب كان من البداية مقصودا رمى بنا فيه من اتونا بالعلم مجردا من سمو الرسالة وجعلوه اداة فتك اجتماعي دائب تقضي على مواهبنا باستمرار وتهبط بنا رويدا رويدا الى الاغوار ..

وفي فوضى الفكر التي تخبط بنا بلا هوادة ولا نور يهدي : تهب علينا الانواء من كل صوب فنغدو في الريح ونمسي في العاصفة ، دون ان نأبه ان ارضنا هي وحدها المرساة وان لا سبيل لنا الى امان الا بعد ان نتوحد فيهـا ..

وفي لف الدوامة التي تدور بنا وتدور بصبيبنا الدوار فنستسلم وننسى .. ننسى ان الحياة كفاح يبتغي رفعة السماء وان فقداننا له يبطل في حياتنا كل معانيها .. ننسى ان الحكم رسالة خير تؤدى وانه بلا عدالة من اعمال الطائشين ننسى ان الطائفية هي الوبال المقعد وان بقاءها صائر بنا الى زوال .. ننسى ان اثرة الغنى جرم وان الفقر قوادنا الى كل نقيصة ..

فهل يمكن ان يستمر التعليم هنا حرا ونحن تصدمنا كل يوم خيبة جديدة تدل اول ما تدل ان مصدر محنتنا

والشفاء كامن في اسس للتربية اوهى من ان ترتفع عليها اية من القيم البانية للقادة الصالحين .. نحن بحاجة الى كل قوة فينا تعبأ وتختزن دعما لكفاحنا من اجل التحرر والبقاء والنمو والارتقاء .. وابناؤنا هم العدة والامل .. هم جنود المعارك التي تخاذلنا نحن عن خوضها وهي صغيرة هينة لتفرض عليهم فرضا في غد باهظة الفداء والبذل تكفيرا عن اجيال تفاهة وعفاء حملت شدائدها ضروبا من العداء دون ان تأبه او تفقه او ترعوي ...

هنا ، ان شئنا ان نجبه واقعنا مخلصين : وكانت لنا الجرأة اللازمة لذلك، فاضمحلت لدينا كل مراعاة يمكن ان تحيد بنا عن سواء السبيل ، واردنا حقيقة بناء وطن يثبت بقوة وينهض بكبر ... تكشفت امامنا خطوط اربعة هي لا غير اسس السعي الى الهدف المبتغى :

البيت ، الثكنة ، المدرسة ، العدالة الاجتماعية .
فالبيت حدب ورعاية خلق وعطاء محبة ...
والمدرسة توجيه وادخار ومعرفة ..
والثكنة تمرس في الدفاع عن القيم
والعدالة الاجتماعية تحرير من الخوف وضمان لامان دائم .

وهذه العناصر الاربعة الكبرى، في اتصالها وتشابكها وتكاملها ، هي التي تنشىء المواطن الصحيح الصالح المجهز بكامل امكان البقاء والارتقاء ، يأخذ منها اليوم غذاءه الكامل ليرده غدا جهدا سخيا في الانطلاق العام ..

فبلا فعل المحبة لا تنشأ في ابنائنا اخلاق النقاء وبلا توجيه لا يدركون مدى فعل ايمانهم بالقيم وبلا علم لا يعرفون ماهية وجودهم والغاية التي من اجلها كنا وبقينا ونستمر ، وبلا اكتساب لفضائل الجندية تبطل لديهم بسالة الدفاع عند وقوع الخطر ، وبلا ضمان اجتماعي تظل اخلاقهم عرضة للسقوط تحت وطأة الحاجة .

ان هذا الكائن النابت الذي هو التلميذ ، يتطلب اول ما يتطلب البيئة المعدة الاعداد الكامل لتحقيق نموه ونضوجه .. ويظل البيت كما تظل المدرسة والثكنة في تقصير عن تأمينها ان لم يقبل المجتمع بكليته عليها دراية وبذلا لتشب فيها اماني غده غزيرة الامكان والمواهب وتنطلق المدرسة تعبيرا حيا لامة حية تبني الحضارة اغداقا متزايدا باستمرار يوما بعد يوم وجيلا بعد جيل.

انسان اليوم لم يعد بامكانه ان ينفرد ؛ هو من المجتمع في الصميم : والمجتمع من كل فرد فيه في

الصميم ايضا .. ذلك هو منطق الحياة في عصرنا هذا .. وبفعل هذا المنطق ، ندفع دفعا الى التعاون والمشاركة في جميع شؤون حياتنا ، حيث يتضح لنا ان اعقد ما نجبه من مشكلات تتضاءل وتهون ان نحن عالجناها مجتمعين متفقين ونصل بالتالي الى الشعور الملح بضرورة تحقيق النظام الاجتماعي الاصيل القاضي بجعل كل مورد في الوضع الذي ينتج منه النفع الاعم للمجتمع بكليته .

ومن مفهومنا هذا للمجتمع ، وادراكنا انه يضمنا جميعا في وحدة حياة ووحدة مصير ، نخلص الى مبادىء للتربية توجيها وتعليما غير التي اعتمدناها حتى اليوم على انها الهادية وما قادتنا الا الى ظلام ، ويبرز المجتمع امامنا انه الاساس الصحيح المكين لانطلاقنا الى تحقيق حياة جديدة مجيدة .

هنا ندرك ان الحياة تبادل عطاء

وان العطاء لا يحمل معانيه الا بالسخاء

وان البذل السخي هو الذي يفجر ينابيع الخير من المواهب والموارد . فنعي ان ما اوصد بوجوهنا حتى اليوم رتاج الحياة الاكبر المشرع على غنى الروح وغزارة المادة هو انانية لم يكن لجشعها حد حلت فينا علة لكل تجزئة وتنافر وتباعد وصيرت الى عقم وبوار أجزل ما بذلنا من قاسي الجهود وغالي التضحيات .

وهنا يبرز امامنا معنى لله انقى وارفع ومعنى للارض اجدى ومعنى للانسان جديد .. فنهتف بابنائنا قائلين :

– ان الله واحد ، ورسالاته للناس أجمعين ، خذوا بروح تعاليمها واحذروا الفرقة بالدين واحذروا الطائفية ..

– قدسوا ارض بلادكم .. فهي وحدها الام الواهبة في معين لا ينضب .. ولكل منكم فيها قدر ما يبذل لها من نشاط وجهد ..

– احبوا بعضكم بعضا ، وتعاونوا في كل صغيرة وكبيرة ، فليس هنالك بسعادة اعم من التي تشارك في تحقيقها كل القلوب وكل الايدي ..

– مدرستكم هي النواة للمجتمع الاكبر : كما تكونون فيها يكون ... فاسعوا وراء العلم والكمال ولكم أنى تطلعتم لتحقيقهما مجال .

ومن وحي هذا المجتمع وانصهارنا فيه ، من ماهية تكوينه : من نقائصه وفضائله ، من آلامه وآماله ، من ماضيه وواقع حياته وغايات هذه الحياة ننكب على معين المعرفة نستمد منه عناصر النهضة المنشودة .

واول العلم ان نتعلم لغتنا ؛ فندرك انها اداة تعبير لا اروع ولا افعل ، ونعمل على زيادة غناها بالاصطلاح الجديد ونتقن وننشر ونروج انتاجنا بها . ونعتمدها في تدريس كل مادة من كل علم وفن لتسلم لنا العربية ام اللغات التي تحمل تراثنا كله .

واول العلم ان نعلم من نحن . وما كنا والى اي مصير .. فالتاريخ هو دليلنا الى آثار خطانا في مدى الزمن ؛ حيث حللنا حينا في القمة وسقطنا حينا الى الغور ، واتحدنا زمنا وافترقنا اخر ، ومر بناء اعداء وصادفنا اصدقاء .. فتتضح امامنا اسباب النهوض وعوامل التخلف لنتعظ بما كان تعبيدا الى الغد الافضل .

واول العلم ان نعرف بلادنا ، ومركزها من العالم : وما فيها من امكان وموارد ، فتتكشف لنا عن وضع مزنوق وخيرات لا تحصى ، غفلنا عنها على الدوام لتبتلع الهجرة الالوف من عقول وسواعد شبابنا ..

واول العلم اخلاق نبني نبلها من عبر التاريخ واعلاء المناقب واعزاز الاهداف ليعي ابناؤنا انهم هنا لتحقيق الخطير المجيد من أغراض وجودنا وان هذا الامر رهن بارادة قوية صارمة تأخذ الحياة في جد وتصمد في عناد ليتم لها ما تبتغي .

وباللغة التي تكتمل ، والتاريخ الذي يهدي ، والارض المتكشفة عن عناصر الثراء ، والارادة الدائبة الصامدة ، ننكب على موارد المعرفة نستضيء من انوارها لنخطط لكل علم وفلسفة وفن سعيا وراء الاكتشاف والانتاج والتعمير تحقيقا لنهضة ملحة لم يعد من حدوثها بد في جهدنا نحو حياة ارقى نعود ونلحق بها ركب الحضارة الذي صار منا في الافق البعيد .

نحن بحاجة اذا الى النهوض بمدرسة الدولة ، مدرستنا الوطنية الكبرى ، تبدو عندنا الوحيدة الواحدة الموحدة البرامج لمختلف درجات التربية والتحصيل العلمي ، المدركة لعظم الرسالة الملقاة على عاتقها ، تقدس المعرفة وترفع قدر المعلم ، تجمع كل ابنائنا على السواء ، مجانا ، في كل مدينة وقرية ومزرعة .. هذه هي الحاجة التي تجبه كل مسؤول عندنا وتجبهه في عنف وتحد ..

دولتنا هذه تظل كيان تسويات عليل ، ان لم تستقم في نفوس بنيها اولا ، حيث آن للايمان ان يتركز ، بانها مجال رحب لينا ع الحرية في نظام امثل ، ولنصرة هذه الحرية في كل ارض عربية وكل ارض في العالم تحل بها ظلامة او يطاها عداء ... كل التضحيات في هذا السبيل يجب ان تهون ليكون لبنان حقيقة مركز النور المشع الضوء الهادىء .

المحيدثة – لبنان   حافظ المنذر



جورج صيدح

شكر الله الجر

١٩٠٨ ــ ١٩٧٥

بقلم جورج صيدح

***

اخي حبيب الروح الاستاذ عيسى فتوح ــ دمشق

اصابتني رسالتك ٢٥ـ٢ـ١٩٧٥ بسهم وقع في الصدر ، ونفذ الى الظهر . ناعيا شكر الله الجر. لا شك ان الاسف عليه شعور عام في الاوطان والمهاجر . ولكنني اشعر بالم خاص لفقد هذا الزميل النبيل ، نشا من عقدة الذنب نحوه (على ما اظن) . لم نتعارف شخصيا ، رغم زياراتي المتعددة لريو دي جانيرو واثناء اقامته فيها ، اذ كانت رحلاتي تجارية وهدفي استيراد البضائع من المصانع ، بعيدا عن رجال الصحافة واهل القلم . ورغم ذلك حظيت في الرحلة الاولى عام ١٩٤١ بمعرفة عقل الجر . شقيقه الاكبر الاشهر وقتئذ . اكرمني بزيارته لي ، ثم اكرمني بحضور مادبة عالمية اقيمت على شرفي ، وطارحني التحيات الشعرية ، كما ترى في ديوان عقل الجر الصفحتين ١٤٢ ــ ١٤٤ . اما شكر الله فاحتجب عني ، بدعوى انه صاحب مجلة يزار في ادارتها ، قبل ان يزور القادمين وانا في ذلك الحين كنت آخر من يعلم هذه اللياقات والتقاليد ، ومن يعمل بها . ذلك لم يمنع شكرالله من نشر قصيدة لي في مجلته عنوانها «وطني» (هي المنشورة في ديواني الجزء الثاني صفحة ١٧٥) كما انه نشر المطارحة الشعرية التي جرت بين اخيه عقل وبيني . ثم اخذ يراسلني الى كراكاس اثناء الحرب العالمية ، وهمه تامين وصول دفعات من ماله يرسلها الى والدته (معبودته) عن طريق فنزويلا .

لم تنقطع صلات المراسلة بيننا الا عام ١٩٥٧ ، على اثر صدور كتابي المهجري « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » ، اذ قيل لي انه استاء من الدراسة المنشورة فيه عنه . وبالتحقيق وجدت في صفحة ٤٧١ السطر الرابع عبارة نابية وهي « ان اعجابي بنثره يفوق اعجابي بشعره ... لانني لا استشعر بالاسترخاء الذي تشعرني به قصائده المطولة » هنا اعترف ان الذوق خانني في هذا التعبير ، وحيث قصدت المبالغة في التكريم بعد ان رفعت شعره الى السماء السابعة ، ثم قلت ان نثره يفوق شعره ظنا مني انني ازيده رفعة ، في ناحية لم يقرظها احد من مقرظي دواوينه . فالتوى قصدي وضاع جهدي . ولم اجد فرصة لتبرير موقفي امامه لانه لم يكتب لي كلمة عتاب ، بل آثر السكوت والاحتجاب .

هذه الهفوة وغيرها من الهفوات اتيح لي ان استدركها في الطبعتين الثانية والثالثة للكتاب . فطبعت نشرة التصويب واعطيتها لدار النشر لوضعها داخل الكتاب ، فلم تفعل . فاخذت بتوزيعها على مكتبات الموزعين في بيروت واحدا واحدا ، فلم اجد تلبية من احد . الامر لا يهمها بل هو مضيعة لوقتها كما صرح لي بذلك صاحب مكتبة كبيرة في ساحة النجمة . جرى لي مثل ذلك في نشر آخر ديوان لايليا ابي ماضي طبعته في دار العلم للملايين وعثرت فيه على اغلاط مطبعية طلبت استدراكها في الطبعات التالية ، فلم تستجب لطلبي ، واستمرت الاغلاط ذاتها تتكرر بدعوى ان التصحيح في صناعة اللينوتيب امر عسير .

اليوم بعد وفاة الشاعر الحبيب يمكنني وفاء حق الفقيد علي بأعادة نشر دراستي عنه مهذبة ، تكريما

---

(١) نزولا عند رغبة الصديق العزيز ، فقد اجريت قلمي في البحث الذي كتبه عن الشاعر المرحوم شكر الله الجر ، في كتابه « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » وصححته طبقا اللائحة التي ارفقتها بالرسالة المذكورة اعلاه ، وهي تصحيحات قيمة ، فارجو ممن يمتلكون الكتاب المذكور في طبعتيه الثانية والثالثة اللتين اصدرتهما دار العلم للملايين في بيروت ، ان يعودوا الى هذا البحث وينقحوه كما ورد في شكله الجديد .

عيسى فتوح

لذكراه . ولكن انى لي الجلد والقدرة على الجهد الطويل في الكتابة ؟ وحتي كما يشتهي المذال . يكفي ان اكتب لك ملاحظات وجيزة مع رسالتي هذه تتصرف بها كما تشاء .

★ ★ ★

غادر قريته بحشوش (التي انجب داود بركات) عام ١٩٢٣ لاحقا باخيه الاكبر عقل الجر الى عاصمة البرازيل وفي جعبته زاد وافر من العلوم العربية والاداب الغربية التي تلقنها من مدرسه الحكمة البيروتية ، وبعد ان شارك اخاه زمنا في الاعمال التجارية ، عكف على استغلال ادبه ابتداء من عام ١٩٣٠ ، فانشأ مجلتين على مستوى عبال هما « الاندلس الجديدة » و « الزنابق » واصدر كتابا عن جبران خليل جبران سماه « نبي اورفليس » وكتابه الرائع في النقد « المنقار الاحمر » وديوانين من الشعر العاطفي « الروافد » و « زنابق الفجر » وكان اول من فكر بانشاء العصبة الاندلسية واول من سعى لتاسيسها عام ١٩٣٢ وما جنى في عشرين عاما من جهوده الادبية غير المتاعب والمشاكل ، ولا درت عليه مجلته وكتبه ما يثريه بالاستمرار ، فعاد الى ميدان التجارة وانشأ مصنعا للقمصان يرتزقه ما يكفيه وما يصون به اباءه وكبرياءه .

هو في الادب من دعاة التجديد الموضوعي ، مع التمسك بسلامة اللغة وفصاحة الاسلوب ، يتميز شعره بموسيقى الالفاظ ، ونثره بحرارة التعابير . تشع في مؤلفاته الفكرة النيرة والثقافة الواسعة والثقة بالنفس ، حتى لتشعر اذ تقرؤه انه يخاطبك من برج عال ، وينظر الى صنارتك نظرة اشفاق . لم يرض عن خطبه وعن عشيرته ــ وحقه ان لا يرضى ــ ولكنه تجاوز حقه حتى نصب نفسه حاكما مطلق التصرف في موازينهم .

قال في المنقار الاحمر :

« واذا قلت لاحدهم ليس لدينا في العالم العربي شاعر كامل سخط عليك وراح يكردس من اسماء الاحياء والاموات اجيالا . فان احصيت ما تكدس من الشعر العربي منذ نشأة الشعر حتى الدقيقة التي نحن فيها . فانك لا تجد سوى افق محدود ضيق لا يزيد عن كونه صورة لحياتنا المحدودة الضيقة ، المبطنة بالضجر ، المكللة بالتقاليد البالية ، هات من تشاء من شعراء اليوم ــ وانا منهم ــ لاقول لك ان كل ما نظموه لا يساوي ضياع الوقت في قراءته » .

احس الكاتب صرامة حكمه فساوى نفسه بالمحكوم عليهم ، كي لا يظهر في مظهر الظالمين .

وما درى انه اضاف الى فداحة الظلم خطيئة الكفر بنعمة الله عليه . فهو الشاعر الموهوب الذي نجله ونطرب لقراءة شعره . وما ضاع وقت نغنم منه الشجو والطرب . فان شاء أن لا ينصف نفسه انصفناه نحن . وكما اننا لا ناخذ اعترافه على محمل الجد لا نقابل بالتصديق ــ قبل التحقيق ــ التهمة التي الصقها بزملائه الشعراء ــ اليس بينهم افذاذ أطراهم هو فيما بعد وتغنى بشعرهم ؟ أليس بينهم اخوه العبقري عقل ؟ ايريد منا ان نهمل شعر عقل البليغ هربا من ضياع الوقت في قراءته ؟

في حلق الشاعر غصة سببها الاغتراب وجور الحياة المهجرية على الاديب ، وضياع القيم في محيط جاهل مستهتر :

جل من قدر السعادة للناس ... ومن قدر الشقاء علينا
قد قضينا الاعمار نبري من الاقلام ... اعناقها الى ان برتنا
فاذا سربنا المزقزق يغني ... ريشة ريشة ولونا فلونا

لكن هذا السرب المزقزق الذي يحنو عليه ويتوجع للمصير الذي ينتظره ، لم يسلم من سهامه الحادة :

كثر الناظمون فينا ولكن ... قل من اولد المعاني جنينا
ان من ينسل الخلود بيانا ... غير من ينسل الفناء بنينا

ها قد عاد الى النقد الجارح ، ولكنه استثنى نفسه هذه المرة واشار من طرف خفي الى من يكون ذلك الشاعر الذي « ينسل الخلود » من شعره ، وتجري في دمه عبقرية اجداده الفينيقيين . ومن يكون غير « أنا » :

انا ابن الابيض الزهراء ... والشاطئ الجميل
انا ابن الحرف والمجداف ... والفكر الصقيل
انا ابن السنديان الضخم ... والحور النحيل

للشاعر نظرية خاصة في القومية العربية تلوح من خلايا شعره ؛ ولا تستوقفنا قدر ما تستوقفنا عذوبة ذلك الشعر وقيمته الفنية . اننا نستسيغه ايا كان موضوعه ، واحيانا نسكر بخمرته ، قال يخاطب شلال تيجوكا :

فديتك قيثارة للطبيعة ... من مقلتيها نسلت الوتر
فعطر بدمعك شعر الدجى ... وشنف بلحنك اذن القمر
وعسل بكاسك خمر الورود ... فترقص نشوانة في السحر
وخل فؤادي يقضي ظما ... لدى برد سلسالك الدافق
فلست تروي قلوب العطاش ... الى نهلات الهوى الصادق
ولو سال من جفنك الكوثر

لقد شغف بالطبيعة فابدع وصفها :

والنهر كالديباجة الخضراء ... جعدها النسيم
ينساب مثل اللوعة الخرساء ... في صدر الكريم

ها اذان الشيخ في القبة يدوي في الفضاء
والدعا لله في الجامع والدير سواء
فصلاة الطير في الربوة والسفح غناء
وعبير الزهر بخور تعالى في الهواء

وله جولات موفقة في القضايا الاجتماعية :

ضحك المال من الباطـل لما بخلا
وشكا المال من الباذل لما بـذلا
ليت شعري من من الاثنين كان الاعقـلا

وله غزل رائع مثير ، كقوله :

اسكرتني فسكرت من	خمرين ، لحظك والرضاب
وطبعتها قبلا على	شفتيك تضطرب اضطرابي
قبل معربدة على	... ... من دعابي
جسد ته عبق الورود	تفتحت لندى السحاب
جسد تشرب من دم	الشفق المضرج بالصناب
نمضي ونبقى اسطرا	تبكي وتضحك في كتاب

على ان اروع الحانه واوقعها في القلوب هو ما غناه « لجبل الالهام » لبنان ، من شعر الحب والحنين :

ان لبنان عندنا جبل الالهام	والشعر حيث كنا وكانا
حلم سابح على شفق النفس	وفجر يشع خلف دجانا
نحن في البعد مقلة ترشف النيـ	ـسم على افقه جوى وحنانا
وقليل ان تبلل العمر ياسالي	على قطرة تبل ظمانا

في هذا الشعر لبست العاطفة الصادقة ما يلائمها من الواب الجمال ، وتهادت فتانة بين عرائس الخيال وقد املتها محبة لبنان ، والفخر بالانتساب اليه بحرارة لمناها قبله في شعر شقيقه عقل في قوله :

قل لمن تجهل الحقائق عن لبنان	هذا تاريخنا القـد فاقـرا
نحن من كحل البصائر بالنـور	واعطى البرية الحرف بكـر

وقوله :

وليشهد الله لم تنزل على بلـد	عبر المحيطين من صعر العنا الرحب
الا ركزنا بنود المجد خافقـة	للارز والضاد في الابراج والقبب

هذا الشعر « الكلثومي » كلما تغنيت به حضرتني ردة اديب الظرف المرحوم سعيد تقي الدين « عاش التواضع »

اقول ، ولا اظلم هذا الشاعر الممتاز ، انه على علو كعبه في الشعر ، وعلى فنه الجميل في عرض الصور وتنسيق الانغام واستنطاق العواطف : انني معجب بنثره مثل اعجابي بشعره . ففي نثره فورة نفس ووثبة فكر وقوة عصب ليست في شعره ، اقرأ كتابه النفيس « المنقار الاحمر » فاهتز لبيانه الرائع الاخاذ . ولا اشعر بالاسترخاء الذي تشعرني به قصائده المنظومة في قالب الموشحات . وفيها من رتوبة الصفة ومن اتقان التزويق ما يتعب القارىء . فالكمال الشكلي المستمر قد يمل احيانا .

اليكم انموذجا من نثره في مقالة ليست باحسن مقالاته :

« يتخذ الشاعر الغربي من نسمات الارز السنة وارواحا تتكلم بالسنة الاجيال وارواحها . ويستخرج لك من سراديب الشمس شموسا تكاد تدهش الانسانية بتألق انوارها . اما نحن ـ ابناء تلك المدنيات ، شعراء القرن العشرين ، قرن الثقافة والنور ـ فاننا نكتفي من الارز بالتغزل بنسيمه وحفيف اوراقه ، ونقنع من هياكل بعلبك بالتغني بضخامة اعمدتها وشموخها ، ولا نتكلف الوثبة الى سراديبها الحافلة بالاسرار ، ودهاليزها المكتظة بجماجم الأجيال ، ولا نصغي الى اصوات ارواحها الصاخبة في مسارب اللانهاية . . »

لقد تمكن شاعرنا من الاداب الفرنسية ، فتميز نتاجه عن نتاج زملائه في الجنوب ، وشحت ثقته بهم حينما تحول مجراها نحو شعراء الغرب .

لقد اصدر ديوانا جديدا عام ١٩٦٣ اسماه « اغاني الليل » واصدر بعده كتاب « قرطاجة » ورواية « الشبح الابيض » وديوان « من خوابي الزمن » وقد علق الاستاذ الياس ربابي على هذه المؤلفات تعليقا بارعا ختمه بهذه الصورة القلمية : « يتجلى لك شكر الله الجر في شعره الغزلي ، لا سيما في ديوان « اغاني الليل » كاهنا اعظم في هياكل الحب ، انه ولا مشاحة على قدم الشاوي وكبار الغزليين في شرق وغرب من « نشيد الاناشيد » الى « زهار الشر » . .

« احرق على مذبحه من البخور والصندل ما عبق رائحة الطيب ملء الشباب والرحاب : فكان واحدا من القلائل الذين اجادوا سحب تسبح نشوتها على اجنحة من نور . تحلم احلام الورد والذهب ؛ وتغمر بالف عين ساحرة عيون الشوق والدلال » .

نمى الينا في مغتربنا الثاني ان شاعرنا عاد الى لبنان عام ١٩٦٧ مصطحبا رفات شقيقه الغالي ليودعها ثرى جبيل مسقط راسه ، تجاه التمثال الذي اقامه شكرالله الجر له على نفقته الخاصة رمزا للوفاء الاخوي : اما الوفاء الوطني فهل من يطالب به ؟

باريس — جورج صيدح

انتصار

قصة

بقلم السيد عبد العزيز الجندي

ـ انور افندي .. انور افندي

ـ ايه مالك يا عم زكي

ـ النتيجة ظهرت .. نتيجة الثانوية .. خد الجرنال اهه .. الواد بتاع الجرايد عليه زحمة زي يوم الحشر .. وبيبيعه بشلن .

ـ هات يا عم زكي متشكر جدا ... خد الشلن اهه .

اخذ انور الجرنال في لهفة ، ووضعه امامه على المكتب ، واخذ يمر على الارقام بسرعة وقلبه يدق في اضطراب . والتف حوله جميع زملائه بالقسم وهم يسألونه عن رقم جلوس شقيقته وهو يقول لهم في ضيق . .

ـ انتظروا شوية ارجوكم .

بينما كان وجهه منكبا على الجريدة وعيناه تبحثان في الارقام ، واصبعه تتحرك مع نظراته من رقم الى رقم .. من اعلى العامود الى اسفله .. وكلما انتهى من عامود ارقام دون ان يجد الرقم الذي يبحث عنه ، انتقلت عيناه مع اصبعه الى عامود اخر واخذت دقات قلبه تزداد وتضطرب كلما انتقل من عامود الى عامود .

وعندما انتهى من اعمدة الارقام ، ولم يبق غير العامود الاخير رفع يده ومسح بها وجهه ، ثم اخرج منديله من جيبه واعاد مسح وجهه ورقبته ، وبوجه المنديل الاخر مسح عينيه . بعد ان بلل العرق كل اجزاء جسمه ، وبدات نقطه تتساقط على رقبته وتتخذ لها مجرى في وسط ظهره .

وتوالت عليه الاسئلة من زملائه مستفسرة عن النتيجة، ولكنه لم يرد على اسئلتهم وبعد فترة قصيرة بدا يعاود البحث عن ضالته من جديد في عامود الارقام الاخير . واخذ يحرك اصبعه مرة اخرى مع عينيه من رقم الى رقم ولكن في اناة وعلى مهل . وفجاة .. توقف اصبعه تحت احد الارقام ، واخذ يحملق فيه . ثم اخذ يبحث بيده الاخرى عن قلم .. اي قلم .. بينما اصبعه ما زال مثبتا تحت الرقم .

وبسرعة امتدت اليه ايدي زملائه بعدة اقلام ، اخذ منها واحدا وخط خطا تحت الرقم ثم رفع اصبعه ووضع يده في جيبه واخرج حافظة نقوده ، واخرج منها قصاصة من الورق مدونا بها رقم جلوس شقيقته .. والذي كان مكتوبا في ذاكرته ، ولكنه اراد ان يتاكد من صحته .

وبعد ان راجع الرقم الذي معه على الرقم بالجريدة عدة مرات جلس على كرسيه ، واسند ظهره بارتياح ثم ملأ رئتيه بالهواء في شهيق طويل وعميق ، واخرجه بزفير مصحوب بآهة ارتياح .. القى بها حملا ثقيلا على كتفيه ، وحطم بها قيدا ضيقا حول قدميه . وتناثرت عليه كلمات التهنئة وعبارات الفرح والابتهاج واخذ زملاؤه من الاقسام الاخرى يفدون الى مكتبه للتهنئة .

ودخل عم زكي حاملا على كتفه صندوقا من الكوكا كولا ، ثم تبعه ابنه علي يحمل صندوقا اخر وبعد ان وضعا الصندوقين بجوار الحائط ، وقف عم زكي ممسكا في يده بفتاحة الزجاجات وقال لانور وهو يشمر عن ذراعيه :

ـ ايوه يا استاذ انور .. حضرتك حتعمل كشف والا حتخليها بالبركة؟

ـ كشف ايه وبركة ايه يا عم زكي .. انت مين اللي قال لك هات الصناديق دي ؟!

عند ذلك نهض احد زملاء انور وقال بصوت مرتفع :

ـ نعم نعم .. انت مش متفق معانا تسقينا كوكا كولا اذا نجحت اختك في الثانوية . .

ـ ايوه .. لكن احنا هنا ثمانية بس .. وعم زكي جايب صندوقين يعني ثمانية واربعين ازازه

ـ يا اخي هي المناسبة السعيدة دي متستاهلش ان زمايلنا كلهم يشربوا حاجة سقعه .

ـ خلاص يا عم زكي .. افتح يا سيدي ووزع وامري لله .

قال ذلك بينما كان يقول لنفسه (هو ده كل اللي انتم عايزينه)

غادر انور مكتبه بالشركة بعد انتهاء العمل ، وفي طريقه الى محطة الاوتوبيس اخذ يفكر فيما يجب عمله بعد ان نجحت شقيقته ليلى .. تضاربت الافكار في داخله وتداخلت حتى وجد نفسه غير قادر على التركيز في موضوع معين ، فهناك موضوع عمل اخته وما يتطلبه من اوراق ومسوغات للتعيين ، واي عمل من الاعمال سيكون ذا فائدة اكثر .. في الحكومة ، او في احدى الشركات او .. او .. وكم من الشهور او من الاعوام سيمر قبل ان تتسلم ليلى عملها .. وكم سيكون مرتبها ؟

وتداخلت الصور في مخيلته ، فها هم باقي اخوته تتزاحم صورهم بجوار صورة ليلى . احمد .. الذي نجح في امتحان النقل الى السنة الثانية الثانوية . وسلوى .. التي نجحت في الاعدادية وسهير .. التي نجحت في القبول وستدخل المرحلة الاعدادية .

وارتسمت على شفتيه ابتسامة

مليئة بالرضا . وتذكر اثناء ابتسامته والده الذي توفي منذ عشر سنوات وهو (اي انور) في السنة النهائية بكلية التجارة . ووالدته .. التي توفيت بعده بسنتين، وتذكر انور كيف استطاع ان يتحمل ذلك العبء الثقيل بعد ان اصبح رب العائلة بعد والديه . وكيف استطاع ان يجد هذا العمل بمساعدة بعض اصدقاء والده واقربائه ، ثم كيف استطاع ان ينفق على اخوته من مرتبه بالاضافة الى الثمانية جنيهات بمعاش والده . وكيف استطاع ان يواصل الرسالة تجاه تعليم اخوته . وكيف مرت عليه حتى الان خمسة وثلاثون خريفا دون ان يتذوق طعم السعادة .

حينئذ اختفت الابتسامة على شفتيه .. واختفت جميع الصور المتزاحمة في مخيلته ، ونظر امامه فاذا به قد ترك محطة الاوتوبيس خلفه بمسافة كبيرة . فتوقف عن السير ، ونظر خلفه ولكنه في اللحظة التي بدأ فيها العودة الى محطة الاوتوبيس ، وجد نفسه يواصل سيره في نفس الاتجاه الاول قائلا لنفسه (لا بأس .. فلاستريح في مكان ما ، بعيدا عن البيت ، لكي احسم الامور .. وافكر على مهل) .

ومر في طريقه باحد المقاهي ، فانحرف اليه دون تردد ، وانتقى لنفسه مكانا منفردا بجوار احد الابواب الكبيرة للمقهى . وطلب فنجانا من القهوة .

وقبل ان تتزاحم عليه الافكار من جديد ، امسك بالجريدة التي معه ونشرها امامه ، واخذ ينظر في الرقم الذي وضع تحته خطا ، ثم راجعه مرة اخرى على الرقم المدون بقصاصة الورق التي في حافظته .

لم تعد صور اخته الى ذاكرته . ولكنه ولسبب لم يدركه .. ارتسمت في مخيلته صورة الانسة وفاء ابنة رئيس القسم الذي يعمل به بالشركة.

.. بقدها المشوق ، وقوامها الجميل وانوثتها المتفجرة ، وعينيها الواسعتين الحالمتين ، وشعرها الاصفر الذهبي المعقوص على ظهرها في دلال ، تذكرها وكأنه يسمع صوتها الرفيع الهادىء كنسمة هواء باردة في قيلولة يوم قائظ .

لم يرتبط بها باية علاقة . فهو لم يعرف عن النساء ما يعرفه غيره من الشباب ، ولكنه كان يراها عندما كان يدعوه والدها الاستاذ سعيد الى بيته لانهاء بعض الاعمال الخاصة بالشركة ، والتي لم يكن وقت العمل



السيد عبد العزيز الجندي

الرسمي كافيا لانجازها . فقد كان الاستاذ سعيد من المقربين للسيد المدير لنشاطه وكفاءته وطاعته كما كان محبوبا من مرؤوسيه لحسن معاملته وسماحته . وكان انور احب من بالقسم للاستاذ سعيد لحسن خلقه واحترامه لمواعيد الشركة ولوائحها . لذلك كان كثيرا ما يدعوه الى بيته لانهاء بعض الاعمال الهامة والمستعجلة .

لم تكن وفاء على قدر كبير من الجمال يدعو الى الاثارة ، ولكنها كانت في نظر انور اجمل من في الارض . كانت في نظره اسطورة من اساطير الزمان .. بل كانت هي اسطورة الزمان . وعندما تخيلها وهي تمد يدها اليه للسلام وتبتسم له في رقة ودلال احس بالدفء يسري في يده ثم في سائر جسده .

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يفكر فيها في وفاء ، فبعد انتهاء كل زيارة لهم كانت دائما تملأ قلبه ، وتسيطر على فكره ، ولكن ذلك كله لم يكن يتعدى ساعة من زمن ، واحيانا لا يتعدى بضع دقائق ، وسرعان ما ينساها بمجرد رؤيته لاخوته او اندماجه في مشاغل الحياة ومتاعبها . ولكن في ذلك اليوم بالذات ، وبالتحديد بعد نجاح اخته ليلى في الثانوية وجد نفسه مقيدا بقيد اخر غير الذي تخلص منه عند رؤيته رقم الجلوس في الجريدة . ولكنه قيد ذو سحر عجيب وملمس لذيذ يشع في نفسه نورا ، وفي طريقه ضوءا ، ويوقظ في ذاته املا طالت رقدته ، ويجلي صدءا ران على وجوده طوال خمسة وثلاثين عاما .

واخيرا استطاع انور أن يوفق بين هذه الصور التي تزاحمت وتداخلت في خياله فليلى تعمل وتتسلم منه ما بقي من الرسالة ازاء باقي اخوته، ولن يطول بها الطريق ، فبعد سنوات قليلة يتسلم منها احمد الرسالة ويعمل هو الاخر بالثانوية، ويستطيع ان ينتسب في الجامعة ويكمل دراسته اذا اراد .. ويخف عنهم العبء شيئا فشيئا .

اما هو — اي انور — فيستطيع من الان ان يفك قيده ، ويخلع طوقه ، وينطلق .. ليبحث عن السعادة والمتعة . تذكر ان معظم زملائه بالقسم متزوجون مع انهم اصغر منه سنا ، فلماذا لا يتزوج ويكون سعيدا كغيره من الزملاء ؟ وهل بعد هذا العمر الا الشيخوخة والندم ؟

ان الاستاذ سعيد رجل طيب . ولن يضن عليه بابنته . حقا ان الاستاذ سعيد يعلم انه لا يمتلك غير مرتبه . ولكن انور يعلم كذلك انه ليس بالرجل الجشع : ولا تهمه المادة بقدر ما يهمه الخلق .

وفجأة .. تقلصت عضلات وجهه ومرت على تخيلاته سحابة قاتمة ؛ عندما تذكر انه لا يعرف ان كانت وفاء مخطوبة ، واخذ يجاهد نفسه لكي يتذكر اذا كان قد رأى دبلة في اصبعها ولم يذكر لان وجود الدبلة او عدم وجودها لم يكن يعنيه من قبل . ثم خطر له سؤال اخر وهو ماذا لو رفض الاستاذ سعيد ؟ ولم يحاول الإجابة على هذا السؤال ولكنه قال لنفسه (سأذهب غدا اليه في بيته ، وساضرب عصفورين بحجر . ساطلب منه مساعدتي في ايجاد وظيفة مناسبة لليلى ، وفي نفس الوقت اطلب منه يد وفاء) .

وبعد ان هم بمغادرة المقهى .. وجد نفسه امام مشكلة اخرى (لنفرض ان الاستاذ سعيد وافق على طلبه .. فمن اين له ما يلزم لهذه الموافقة)

وتقلصت عضلات وجهه مرة اخرى فهو لا يملك شبكة ولا مهرا .. صحيح انه مشترك في جمعية مع زملائه بمبلغ ثلاثين جنيهما سيقبضها بعد شهرين ، ولكن هل يكفي هذا المبلغ لتقديم حتى شبكة؟

وعندما احس بخيط السعادة الواهي يكاد ينقطع بين يديه ، وجد نفسه يغادر المقهى قائلا لنفسه (هذه ليست مشكلة فاستطيع ان اقتصد أكبر جزء من مرتبي بعد ان تتسلم ليلى عملها ؛ ولا شك انها ستساعدني ايضا . المهم انني لا بد ان اتزوج، وعلى وجه السرعة وحتى لو لم اوفق في زواج وفاء فالفتيات كثيرات وكلهن جميلات) .

كان يشعر وهو في طريقه الى بيته بنشوة لم يشعر بها من قبل .. تسللت الى داخله نسمة رطبة ندية غسلت كل ما في نفسه من أدران .. وبللت مرآة عينيه فانعكست الى خارجه ؛ واصبح كل شيء حوله جميلا .. ولاول مرة اخذ ينظر الى كل امراة ؛ وكل فتاة يلتقي بها في طريقه بنظرات ثاقبة فاحصة .

واستقبله اخوته في لهفة وشوق ، وامتزجت اصواتهم في نبرات مختلفة تعلن نجاح ليلى . فضمهم الى صدره وقبلهم جميعا واحدا بعد واحد . ثم اقتربت منه ليلى وعلى وجهها ابتسامة نصر كبير . فضمها الى صدره ؛ وطبع على جبينها قبلة حب وحنان وقال لها :

ـ مبروك يا ليلى

فرفعت اصبعها الى اعلى محذرة وقالت :

ـ من فضلك .. لازم تقول مبروك مرتين .

ـ مبروك يا ستي كمان مرة .. وألف مرة عشان ايه المرة الثانية ؟

ـ مبروك نمر ١ عشان نجحت .. ومبروك نمر ٢ عشان المجموع .

ـ مجموع .. مجموع ايه .. المهم انك نجحت وخلاص والحمد لله .

ـ خلاص ازاي يا استاذ وانا طالعة الاولى على المدرسة ومجموعي ٨٢٪

ـ طيب يا ليلى مبروك كمان مرة والف مبروك .

ـ الحقيقة انا مش عارفه اقول لك ايه .. لكن ..

ـ لكن ايه يا ليلى .. عايزه تقولي ايه ؟

ـ عايزه اقول لحضرتك ان انا كنت اتفقت معاك اتوظف بالثانوية وانتسب للجامعة ... و...

وكأنه احس بغريزته بان هناك شيئا اخر وراء حوار شقيقته . وان هذا الشيء سيسبب له متاعب كثيرة . لذلك اسرع بالرد عليها قبل ان تكمل حديثها فقال مقاطعا :

ـ طيب يا ستي ما انا عند وعدي حتتوظفي وحتنتسبي للجامعة كمان وانت وشطارتك .

قالت وفي عينيها نظرة حزن مدفون .. وفي صوتها نبرة الم مكتوم :

ـ مش عارفه انتسب لكلية ايه ؟

ـ الكلية اللي تعجبك ياحبيبتي . انت نسيتي أن مجموعك يؤهلك لدخول اي كلية .

ـ للاسف الكلية اللي تعجبني واللي كنت بحلم بيها مفيهاش انتساب .

ـ ليه يا ليلى هو فيه كليات نظرية غير الحقوق والتجارة والاداب ؟

ـ ايوه .. فيه كلية الاقتصاد .

كان يشعر بغريزته اثناء حوارده معها ان هناك شيئا يهدد احلامه .. ويهدد كيانه لا يعرف ما هو . وكانت كلية الاقتصاد هي ذلك الشيء .

وران على الاثنين صمت مطبق ؛ فاختبأت الكلمات ، وقيدت الالسنة ، وانطلقت النظرات في شرود .. متنقلة في ارجاء الغرفة .

وبعد لحظات .. تحركت قدما انور ، واتجه الى غرفته ، بينما ظلت ليلى في مكانها .

ومرت على المكان سحابة قاتمة .. اخترقت اعماق كل من انور وشقيقته ليلى ؛ فحجبت عن عينيهما شعاع الامل الذي لاح لهما وسطع حتى غمر كل شيء امامهما .

في المساء دخلت ليلى حجرة انور وقدمت له فنجانا من الشاي وجلست بجانبه ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة .. امتزج فيها الرضا بالرضوخ ، والاقتناع بالامتثال .

ـ انا اسفة يا انور .. متزعلش

مني .. حضرتك اتحملت كثير .. وضحيت كثير علشانا ، وانا لازم اساهم معاك في المسؤولية عشان اخواتنا الصغيرين .

خلاص يا سيدي متزعلش حدخل كلية التجارة او الحقوق . او اي كلية فيها أتنساب عشان اقدر اشتغل ، عشان حضرتك كمان لازم .. لازم تتجوز .

وبددت كلمتها الاخيرة السحب القاتمة التي تراكمت في نفسه ، وتسلل شعاع الامل الى نفسه من جديد فاستدار اليها ووضع يديه على كتفيها ، وطبع جبينها قبلة اودعها كل ما حرمتها الايام من عطف ابيها وحنان امها .

ثم افلتت منه واتجهت الى مكتبه وفتحت درجا من ادراجه وهي تقول له :

ـ لو سمحت تغمض عينيك دقيقة واحدة :

ثم تقدمت نحوه حاملة لفة كبيرة من الورق وهي تقول :

اتفضل يا سيدي حلاوة نجاحي .

وفتحت لفة الورق لتقدم له قميصين جديدين وزوجين من الجوارب . فنظر الى هديتها في دهشة ثم نظر اليها ، ولكنها بادرته قائلة :

ـ عارفه اللي عايز تقوله .. ناظر المدرسة عامل مكافأة عشرة جنيه للاولى على المدرسة ولما رحت النهارده كان موجود هناك . وسلمني العشرة جنيهات بعد ما سلم علي وباركلي طبعا .

ـ طيب يا ليلى مجبتيش لنفسك شوية ملابس ليه ؟

ـ يا سيدي انا بكره لما اشتغل حجيب كل حاجة .. وحضرتك طول عمرك بتجيب لنا كل اللي احنا عايزينه .

فقبلها مرة اخرى واستأذنها في الخروج لزيارة احد زملائه .

ارتدى انوز اجمل ما عنده من الثياب بما فيها احد القميصين الجديدين ، وخرج من البيت والامل يملأ قلبه ، والمستقبل السعيد يغمر الدنيا من حوله نورا وبهجة ، ولكنه عندما نزل من الاوتوبيس توقفت كل الافكار والاماني التي رسمها له خياله وكأنه تركها في الاوتوبيس .

توقفت امانيه كلها وتجمدت .. ثم اضطربت ، وظللتها تلك السحابة السوداء من جديد . كانت المسافة بين محطة الاوتوبيس وبيت الاستاذ سعيد قرابة محطتين ، وكلما اقترب من البيت ازدادت افكاره اضطرابا ، واسرعت دقات قلبه ، وشعر ببرودة تسري في اوصاله ، وتزاحمت في مخيلته مرة اخرى صور كثيرة .. حتى صور زملائه ووالديه . ثم ما لبثت ان اختفت جميع الصور ولم يبق امامه الا صورتان بارزتان . تتزاحمان وتتناضلان . وتحاول كل صورة منهما ان تقف امام الاخرى لتحجبها عنه .. ثم ارتفعت اصواتهما ، كل منهما تدافع عن نفسها ، حتى كاد صوتهما يصم اذنيه ..

فهذه وفاء تصف له المستقبل السعيد . والبيت السعيد والاستقرار و... و... و... وهذه ليلى تذكره بمسؤوليته . بوصية والديه ، وتشير له على زميلاتها وهن ينظرن اليها في اعجاب واجلال لما حققته من نجاح يؤهلها لدخول كلية الاقتصاد التي يحلم بها كل فتى وفتاة وحال بينهم وبينها مجموع الدرجات المطلوبة للقبول بها .

ثم رأى الدموع تتدحرج من عينيها في صفاء ، ورأى باقي اخوته الصغار يلتفون حولها ويحتضنونها في حنان .. وتلتقي دموعهم وتمتزج وتتساقط حارة ملتهبة كماء النار .

احس برعشة انتفض لها كل اجزاء جسمه كما لو كانت دموع اخوته تساقطت عليه .. فرفع يده يمسح بها هذه الدموع .. ولكن يده لمست شيئا لينا رطبا تحسسه والتمس فيه راحة ازالت كل ما اصابه من حروق .. وبددت ما تبقى من السحب القاتمة التي جثمت على صدره واخذ يمسح بيده القميص الجديد الذي اهدته به ليلى ..

ووصل اخيرا الى بيت الاستاذ سعيد ، وتردد بضع ثوان ثم ارتقى السلم ببطء واناة ، ووقف امام الباب .. ورفع يده الى الجرس .. واحس برعشة تسري في اوصاله ، فرفع يده قبل ان يضغط عليه .

وسمع .. او خيل اليه انه سمع صوت خطوات من الداخل متجهة الى الباب . فلم ينتظر ، ولكنه عاد مسرعا الى حيث اتى .. وعاد اليه من جديد النور والرضا والحب . وعادت الى مخيلته صورة شقيقته ليلى ، ومن حولها باقي اخوته . ولكنهم في هذه المرة كانوا سعداء .

احس برغبة في العودة اليهم .. وازداد شوقه الى ذلك الحب والحنان الذي لم يتغير حتى بعد خمسة وثلاثين عاما .

القاهرة

السيد عبد العزيز الجندي

ايها الفردوس

متى ادخل اليك

ليلى السايح

الكويـــت



عندما تاخذني اليك
تاخذني الطفولة ،
وتمدني بنارها الازلية نشوة الحياة ..
احس انك الفردوس الذي فقدته
عاد يحنو علي ،
ويمنح ما يمازج بين الواقع والخيال
ما يجعل القلب موجة ،
والروح ملايين النجوم
احس انك الفردوس ، وانسى كل اللغات
لان فيها ما يميز بين البرق والضياء
لان فيها ما يجعل المصالحة مستحيلة
بين الوردة والخنجر
بين الارض والسماء .

حدثتك عن الانسانية
عن الحب الحقيقي .. النادر
حدثتك عن تجربة الضياع الى الابد
بلا يقين
وكنت في الحقيقة اتحدث عني وعنك
اتحدث عن حب ولد قبل ان نلتقي ..
كنت اتحدث عن ميلاد الروح
حيث يتطهر الانسان من لعنة الانقسام
حيث يجمع في نهر واحد : الحياة والموت ..
يستطيع أن يعرف نفسه
ولكن ، من من هؤلاء يعرف نفسه ؟
من يعرف الانسان في نفسه ؟
الا تراهم يدوسون الانسان في اعماقهم
وهم يستخدمون بعضهم بعضا كمثل الوسائل
مجرد وسائل
والشيطان وحده يعرف السبب ؟
والمراة .. هذه الملهمة الطيبة
الم نر كيف ينظرون اليها ؟
لقد حولوا معناها الاول
الى كل المعاني المبتذلة
حولوها الى مجرد وسيلة لذة
وليس الى غاية حياة

كان اراغون يقول :
« الموت اهون من الحب
ولذا اتحمل عبء الحياة من اجلك »
ولم اكن افهم كنه هذا القول

قبل ان عرفت
كيف يصبح الحب
مركزا لدائرة الحياة
مركزا للتحدي ، واثارة الاعماق الانسانية فينا
ان حبك يطالبني ان ابدأ
باعادة ترتيب الاشياء
يطالبني ان امنح الاشياء اسماء جديدة
ان امزج بين الطريق والتعب
ان اكون كما انت كائن !

اترى الى هذا الغباء الكبير
عبء ان يكون الانسان نفسه .. وان يحيا
اذن ، كيف يعيش هؤلاء البشر ، ولا يحبون ؟
لماذا لا يكتشفون هذه القارة السحرية : الحب ؟
انا ادرك لماذا ؟
اعرف ذلك السر الذي
يعيد خلق الاشياء في لهبه الدائم ..
انا اعرف الحب
وهم يهملون ، او ينسون هذه الكلمة
هذا السر الكوني
الذي يجعلني احيا من اجله ..
الحب الحقيقي مقتبس
ولا اقتراب من المقدس
الا بفعل الطهر والايمان
بفعل العبادة
والحب ، معنى المرأة الاول
المعنى المكتمل في ذاته
واقتراب الرجل منه ، هو بلوغ للكمال
وفي هذا الحب ،
يغدو اتحاد الكائنين صلاة

والصلاة : امتزاج بين الحب والعبادة
وسمو فوق التعارض بين الانسان والانسان
انه الرجوع الى ينابيع الطفولة الجسدية والروحية
من هنا عودة المحبين
الى عالم الصفاء
حيث ينبثق السمو
من لحظات الذوبان المطلق
حيث يتعالى الانسان ، باكتشاف أبديته
على لحظات الزوال

حيث يحس انه يحيا في قلب الابدية
وانه اقوى من الهزيمة
والكآبة ومرارة الاحزان

ههنا يمحي التعارض بين الروح والجسد
التعارض بين الذات والموضوع
ويغدو الجسد طريقنا الى الروح
وتصبح الروح طريقنا الى الجسد
هكذا افهم الحب ـ الانسانية
اود احيانا لو استطيع ان اقول :
نارك .. الدفء .. الحنان .. الامان
ولكن ، كيف يمكن للكلمة
ان تحتوي خلود النار
وخلود الدفء والحنان والامان ؟
كيف يمكن ان اقول ما لا يقال ؟
انني احترق
كي اعيش الموجة لا الكلمة
الرعشة لا الرجفة ..

حينما نتعانق ، يخيل الي
انني سوف لا احس بجسدي
سوف احس فقط انني موجة شفافة
تموج على دفئك وتهدهدني ..
فخارج صلاتنا ،
وبعيدا عنها ، لا يبقى اي شيء
لاننا ساعتذاك ،
نعيش الوجود الاكثر غنى ، والاثمن
الوجود الذي اكون مجدفة فيه
على صلاتنا
لو قلت : انا وانت
هذه الشفافية التي تصهرنا
وهذا النقاء ، هو ما يجعلني ادعو البشر
الى ان يطهروا نفوسهم لكي يعرفوها
ففي النقاء وحده
لا نعرف من الذي يعطي الاخر
لان « انا وانت » كلمتان
لا وجود لهما في الفردوس
ايها الفردوس ؟
متى ادخل اليك ؟

الكويت ليلى السايح

الشاعر جميل بطرس حلوة

بقلم الدكتور جورج ديمتري سليم

* * *

مساء الجمعة ١٥-٢-١٩٤٦ ، كان « جميل بطرس حلوة » قاصدا منزله عندما دهمته ، في محطة « الصابواي » بمدينة نيويورك ، نوبة قلبية راح في الحال ضحيتها . وذاع نبأ وفاة جميل، فارتجت الجالية العربية له لان جميلا كان لها رجلا خاصا .

كان - قالت « السائح » - انسانا خفيف الظل والروح ، عفيف النفس ، غنيا باخلاقه ، ودودا ، عرف الحب ولم يعرف البغضاء ، وآمن بالعفو ولم يؤمن بالحقد، وزهد بكل شيء من متاع العالم الا بجمال النفس والمروءة » .

وكان - بكلمات اسماعيل الخالدي - « مثالا للرجل المرشد الصالح ، قوي العزيمة ، مخلصا لاصدقائه ومعارفه ، مضحيا بصحته ووقته لاجل أهله وبلاده ، قلما تسمع منه شكوى وتذمرا من احد . الجميع عنده اخوان واصدقاء » .

وكان - باقرار صديقه عبد المسيح حداد - « شاعرا له ميزته بين الشعراء . كان سريع النظم حتى ليستطيع ان ينطق به نطقا دون تعثر . وكان فياضا ، يتدفق شعره كتدفق الشلال ، ويقوله بنبرات كأنها هدرات الشلال . كان شاعرا مجليا ، جواده الفطرة السخية ، ومرماه الادب العربي الذي ولع به ولعا جما ؛ على الرغم من تضلعه باللغة الانكليزية وغوصه في آدابها» .

وكان كاتبا حاذقا ، يدبج المقالة باسلوب سهل بديع بعد دراسة وفهم للموضوع . فوق هذا ، كان محاميا ناجحا ، دافع عن ابناء جاليته افرادا ، كما دافع عنهم جماعة . وقد كفل نجاحه في دعاويه - باعتراف من عرفه - ذكاؤه ومقدرته ونزاهته .

اضف الى ما ذكرت ما ذكره هو عن نفسه ، قال : « ولدت عام ١٨٨٣ في مدينة دمشق الشام . وانا عريق بدمشقيتي من ناحية جدتي ، والدة أبي . فعائلتها آل « حجار » معروفون باستيطانهم دمشق من قبل فتوحات تمرلنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) . اما جدود والدي فأصلهم من شمالي لبنان القديم » .

توفي اذن جميل عن ٦٣ عاما ؛ ودون ان يظهر له ديوان مجموع او كتاب مطبوع غير كتاب « المهاجر السوري » ١٩١٠ . ومرت ٣٠ سنة على وفاته نسيه فيها معاصروه . فظللنا نجهله دون الانتفاع من نتاجه الادبي .

وليس قصدي هنا التعريف بهذا الاديب المهجري الممتاز وبنتاجه الجميل - فهذا ليس مجاله - انما قصدي التقديم لمطولة شعرية من نظمه ، أحيي انا بها ذكراه الثلاثينية الطيبة التي جاءت ونكبة لبنان الكبرى قد طال جريها على قدم وساق .

على انه يجب ان انبه القارئ ان هذه المطولة ليست بنت مكان وزمان واحد ، بل بنت امكنة وازمنة عديدة، متباعدة ، كانت ما بين ١٩٠٦ و١٩٣٨ . ذلك لان المطولة ليست ، في الحقيقة ، قصيدة واحدة بل اجزاء من قصائد حاولت انا ربطها بعضها الى بعض ربطا فنيا .

والان ، وقد عرفت القارئ بجميل بطرس حلوة وبمطولته ، علي ان اعرفه ايضا ، في هذا المجال ، برأي جميل في « الشعر ومنزلته في الهيئة الاجتماعية » . كتب جميل في هذا الموضوع يقول :

« الشعر أوسع وابدع واشمل وافعل واسطة لنقل المعارف والعواطف لانه يطرق القلب ، ويخرق الروح ، ثم يسري الى الدماغ ، فيضربه بعصا السحر ولو انه قد من صخر .

وباكتشاف الشعر والكتابة الشعرية قد اكتشف الانسان جمال ماهيته وعلو مركزه بين الخلائق . ولذلك فقد عني به جدا ؛ وجعله مستودعا لفلسفته وتاريخه واخباره ونوادره واسفاره ، وتركه اثمن ارث لنسله من بعده . وبزعمي ان اول من اكتشف هذا الفن الجميل احق واجدر بالتجليل والتكريم ، والتبجيل والتعظيم ، من اعظم مكتشف او مخترع ، وافهم محترف او مصطنع ..

عظمة كل امة قائمة برجالها : ورجال الامة الشعراء : والكتبة ، والسياسيون ، والمخترعون ، والبارعون في صنائعهم ، والمتمولون . وعندي ان الطف واعطف واشرف واعرف هؤلاء كلهم هم الشعراء والكتبة. وعروا كل امة من شعرائها وكتابها تروا مقدار ما ينحط من عزها ومقامها .

هوذا التاريخ مصداقا لهذا التقرير . فسائلوه ينبئكم ان في الحروب اليونانية لما كانت تعجز بلاغة السياسيين عن الافتعال بالجنود كانوا يستدعون الشعراء لنشيد الحماسيات ، فتلمع البوارق ، وترفق البيارق ، وتقدم الجنود كالاسود باقدام على الحمام ، فيظفرون من

الإمجاد بالمرام . وسالوه ايضا ينبئكم انه على زمــــن الثورة الافرنسية (١٧٨٩) حين لج الشعب وكفر ، واضطهد الدين الى درجة كادت تجعله اثرا بعد عين ، كيف ان الشعر والكتابات الشعرية سكنت ثائر الغضب واطفأت نار الجهل ، وفتحت عيون الارواح : فحررت الاجساد ثانية في هيكل القداسة مسبحة العلي القدير .

ثم انظروا، في وقتنا هذا ، كيف يزار الكتبة والشعراء بالشعب مستنهضين الهمم لجلب النعم وصرف النقم ...

اجل ، نحتاج الى ارواح علية ، واذهان صفية ، وقلوب نقية ، وصدور بحمية ، والسنة جريئة وفية ، واقلام مخلصة قوية : نحتاج الى كتبة وشعراء حقيقيين تنهض بامتنا ، وتعود بماضي مجدنا وعزتنا . فشجعوا العلم ، ايها القوم ، واكرموا الكتبة والشعراء ، وانصتوا لاصواتهم ؛ الحياة والنجاح عندئذ لكم مكفول ، والامر مقضي مفعول ، انشاء الله » .

اختم هذا التقديم مترحما على جميل بطرس حلوة، مرددا قوله :

بنجعل حب الحق للنفس ديننا   ونخدم، ما عشنا، على الحق موطنا

١ — شواعر

انوم — وقلبي بين جنبي شاغل   وقد ارقتني الحادثات النوازل
وكيف عيوني مطبقات جفونها   وقد هطلت منها الدموع الهواطل
تحيرت ، لا ادري اذا كان مضجعي   من الشوك، او فيه الحصى والجنادل
ولكنها الاوطان ، ايسر خطبها   له تسرح في مهجتي متواصل
وحومت الغربان في عرصاتها   وقد خرست فوق الارائك البلابل
وقفت — بفصل الروح — عند طلولها   اسائلها عن آلها .وتسائل
وليس سؤالي غير ترديد لوعتي   وما انما الا عالم متجاهل
ضللتم ، وفي ايدي النبيين عندكم   مصابيح تذكو للهدى ، ومشاعل
واني تجريت الاحاديث عنكم   وقد انبأتني كتبكم والرسائل
علمتم ، وعلمتم بني الارض، انما   عليكم قضى — لو تعلمون — التخاذل
ولولا اتحاد البحر من قطراته   لما هدرت امواجه وهو هائل
ولولا مدافين البخار تجمعت   لما زلزلت سطح الوجود الزلازل
حرام عليكم تشهدون انقراضكم   وياخذكم طيف الكرى المتثاقل
واقليمكم خير الاقاليم في الورى   تجود بعطاياه وتحلو المناهل
على اريضات الرياض كانها   جنائن « عدن » انفرتها الجداول
ويبطن خيرات اذا هي اخرجت   نزول من القاموس عاف وسائل
قد استوجب الاصلاح امر بقائكم   افيقوا،وجودوا، وادركوا، وتكافلوا
فكونوا كما في الارض عاشت جدودكم   «اذا راح منهم فاضل قام فاضل»
وينهضكم بين الشعوب اتحادكم   وعلم ، وحزم وافر ، وتساهل
وحاضركم داع الى ترك ما مضى   وخارجكم هابت لديه الدواخل

٢ — نداء ورجاء

اواه ، يا قوم ، اين الحب بينكم   والاتحاد ، وعزم ما به كلل
واين منكم ثبات لا يحول ، ولو   دون المآرب حال الموت والاجل
واين منكم اباء النفس يرفعكم   لربع مجد غدا من دونه « زحل »
فيقتدي العدل في ارجائكم حكما   وينتفي الفقر والآفات والعلل
ويصبح الدين بين القوم نبع تقى   رعاته برضاء الله تتصل
لله ادهار مجد فيك قد سلفت   يا شرق ، هل ذاك ظل راح ينتقل
وهل تعود تلك الايام ناضرة   وهل تكف صروف الدهر والغيل
ام ينزوي ظل الاسعاد مندرسا   عليك مني سلام ، ايها الطلل

٣ — متابعة النداء

بالتساوي وبالاخا والمحبه   طالب العز وانفعال الرغبه
ليس يرجى لامة من فلاح   غير ان هب كلهم فرد هبه
شعراء الزمان كم نبهتنا   بغناها ، وكم خطيب بخطبه
ان كسر العصاة سهل ، ولكن   كسر العش بانضمام صعبه
وهو امر لكم تمثل حينا   بعد حين ، وكم رقبناه رقبه
والى الضم كم دعا ، فضربنا   فيه عرض الجدار اية ضربه
ولكم نحوه الضرورة حثتنا   فعدنا ، والخلف يبعد قربه
ما ترى ، ان يكن من نواحي   الشام «زيد»، ومن اراضي«الشربه»
او فماذا ان كان لـ«القدس» يسعى   او الى « مكة » يؤم « الكعبه » ،
فهو يثري في دينه باعتقاد   وهو حر ما شاء يعبد ربه
ليت نستبدل التعصب يوما   بالمؤاخاة كي نرى ما العصبه
كي نراها تقودنا للاماني   حيث تهي الهنا ومرعى الخصبه
كي يمسي الشرقي بالحمد موصوفا   لدى الناس في ديار الغربه
ايها الناس ، قد كفانا هوانا   وكفانا اهانة ومسبه
نحن ان ظل جمعنا في شتات   ليس يرجى لحالنا من قلبه
من رمى بالدواء ، وهو عليل   كيف تقوى على شفاه الاطبه

٤ — فحتى متى ، يا قوم ، حتام نجهل ؟

رويدا، بني الاوطان ، استوا عقلا   وعندكم «الانجيل» بالحق منزل
وعندكم « القرآن » يعرب مفصحا   وعندكم « التوراة »تقضي وتفصل
ولكنها ذكرى الحقائق قد دعت   لتذكيركم ، فاستنهضوا وتعقلوا
الا ان اس الاجتماع فضائل   ودون اجتماع ليس للملك منزل
تقاطعتم بعضا عن البعض، فاشتفت   عداكم بكم ، آها ، ولم تتوصلوا
ولو احسن التدبير بالاس جمعكم   لما عسف الظلام فيكم وهولوا
ولا فرقت ابني «سبا» اس العمى   يبيتون لا يدرون ما الصبح يحمل
ولا حل «عزرائيل» يحصد راغبا   ابادتكم ، والجوع في الكف منجل
الا ، هل رأيتم ما تعصبكم جنى   عليكم ؟ وهلا بعد ذا اليوم يبطل
جزاء الالى يشملون جهالة   معجل ذل ، او فموت مؤجل
جهلنا — وايم الحق — معنى وجودنا   فحتى متى ، يا قوم ، حتام نجهل

٥ — نبضات القلوب

قام «زيد» ينازع العيش «عمروا»   قام « عمرو » على سواه يجور
اينما سرت التقي شن غارات   فلا من يغيثني ، او يجير
ساد في سالف العصور ذوو البطش   فولوا ، وقد اتت ذي العصور
فعلى الافتراس كان مدار الناس   طرا ، لذا الرزايا تدور
كذئاب الفلاة نحيا ، ولكن   قد عدتنا الاذياب والكثير
يا خطانا، سيري بنا في طريق الحق   حتى متى يلبسون الغرور
ذكرينا ، يا نفس ، بالموت دوما   هل يجدي نفعا بنا التذكير
وهلمي الى الطبيعة ، حيث   الطير بالحب عائش ، والزهور
والرقي في صحائف الكون ما يحيا   به القلب والنهى والضمير
ما وجدنا لكي نعيش شقاء   بل شقينا لان منا القصور
نحن في وسعنا اذا انصف الناس   جميعا ، واحسن التفكير
ان نعيد الفردوس ايضا ، ونغدو   نحن منا ....
هكذا الناس في نزاع عنيف   ما تزال الاطماع فيهم تثور

٦ — في سبيل الوطن

يقولون ، لا اوثان يعبدها الورى   وها المال قد خرت لديه خواشعه
فاين تعاليم المسيح ، وقبله   تعاليم موسى ، ثم احمد تابعه
مشيت الى ان قد حفيت ميمما   فاين السلام المشتهى ومرابعه

الهوى المجتاح

نثرت على دروب الغيد قلبي   تكي يصرعنه شغفا ووجدا
فينجو من حياة ذاق فيها   من الحسن اليتيم اسى وسهدا
ولكن الهوى أولاه وصلا   وهجرانا ، وارزاء ، وصدا
وصب له كؤوس البؤس عاما   وهش هنيهة ، ليصب سعدا
فلولا شقوة الولهان دهرا   لاغمد من ثرى النعماء لحدا
ولولا الحب لم تكن الاماني   ولا الدنيا بلا سلمى وسعدى :
ولا الامجاد ان لم يور طرف   كحيل للهوى المجتاح زندا

محمد العدناني

وقد بات كل بالسياسة يحتمي   ولا حبذا اقواله وخدائعه
فهذا شعار الادميين واضح   يخادع من تقضي عليه منافعه
وما هكذا الرحمن شاء، وانما   كذلك في الانسان شادت طبائعه
فلا تغفلوا عما ب «عامورة» جرى   و « سادوم » لما قوضتها زعازعه

٧ ـ واجب الوطنية

فهبوا كشعب عاقل متناصر   ولا تثنوا الا وقد نيل القصد
ولا ، لا يكن من دين موسى واحمد   ومن دين عيسى فارق ومبدد
الىم ، وجتىم الرقاد على القضا؟   فلا تنعسوا من بعد هذا وترقدوا
فمن لم يكن يحيى على حب موطن   من الباس والاقدام لهو مجرد

٨ ـ واجب الوطنية

واتركوا الدين ، ما له والسـ   ياسيات فيكم ، يا أيها القاسمونا
وانظروا فالشعوب اجمعها تر   قب ما تفعلون او ترقمونا
فتعالوا على التعاضد نستبـ   ني المعالي ، وهي فالتهمونا

٩ ـ وعد بلفور

اعين الدنيا اليكم ناظرات   ترقب الاقدام فيكم والثبات
اترى تبقون ابناء الحياة   مثلما كنتم اباة وكماة
ام بكم عبثت   ايدي الهرم
لا ورب العرش ، لستم تحجمون   فالنصارى عرب والمسلمون
امركم ، والله ، امر ذو شجون   فكفى طويلا في سكون.
وبه كدتم   تصيرون عدم

١٠ ـ اليوم يومكم

يا بني موطني العزيز ، سلام   اين كنتم ، في الحل والترحال
يا بني موطني ، لقسمتكم قد   سال دمعي ، وما الفؤاد بسال
فاجمعوا الرأي واستقروا على   مبدا شريف للفوز بالاعمال
فهو الله قادر ان ينيل الحق   فاسعوا عليه بالاتكال
واذكروا ، واذكروا جدودا عظاما   هم فخر الدهور والاجيال
واذكروا ان منهمو قد نلتم   فاقتفوا اثرهم على الافعال

١١ ـ العهد الجديد

امتي للفظة لها في جناني   نغمة الناي مثل لفظة امي
عن عياني لم تحتجب بجبال   فاصلات ، ولا بامواج يم
غير « الشام » روحي، وفي «لبنا   ن» قلبي ، اهيم باسم باسم
كلما الشمس اشرقت المنى   لبلادي سناءها بعد عتم
كلما البدر لاح لي اترجى   ضوءها مثله على كل جرم
كلما الطير طارد الهم عني   اشتهيها تطيره دون غم
كلما الريح هب ينشر عطرا   قلت منها : يروي أحاديث عظم
نائبات الزمان قد ايقظتها   فهي ترنو الى المعالي وترمي
يا بني امتي ، عليكم سلام   في كلا الحالتين : حرب وسلم
للسياسات في الممالك غدر   لا تغروا بسلطة وبحكم
بدو بدو اخلاقكم هذبوها   واجهدوا ، واعلموا بفن وفهم
ان من كان ظالما في حماه   فحماه لا بد يبلى بظلم
تظلمون النفوس في نصر دين   ضد دين ، بل ذاك اثم باثم
تظلمون النفوس ما دامت المر   اة منقادة بجور ورغم
تظلمون النفوس حين تبا   هون ـ بلا طائل ـ بخال وعم
تظلمون النفوس حين تجا   فون المحاريث ناعمين بحلم
ان ملكا تبغونه مستعزا   ليس يبنى من در نثر ونظم
لا عدمتم في الحادثات رجالا   لا يبالون بالقضاء الملم
بعيون ترى الحقائق في الدنيا   جليا ، بلا انخداع ووهم
بعقول صحيحة تتوخى   حكمة الدهر ، قبل اصدار حكم
بخطى لا تزل الا استعادت   جريها ، واهتدت بعزم وحزم

١٢ ـ يد الوداد

مد نحوي يد الوداد ، وصافح   لست الا مثلي على الارض سائح
رب يوم بجيء غير بعيد   انا عنها ، وانت يا صاح ، نازح
هز كفي بكفك اليوم شوقا   عن شعور يطيب بين الجوانح
فغدا ، ربما النوى فصلتنا   ببحار عميقة او اباطح
هز كفي ، فرب هزة كف   هي للنفس بلسم والجوارح
يتبقى تاثيرها في جناني   حين تعدو بنا الخطوب الفوادح
حين ليلي يهولني بالدياجي   وارى الارض للهموم مسارح
على شمس الوداد تهفو نفسي   وتريني السبيل بالصبر واضح
الجمع الحطام اعرضت عني   وتشامخت مزريا بالنواطح
اولتدري ـ فلست والله أدري ـ   هل تكون الغداة مثل البارح
حاضر المرء عمره ، فتمتع   بنعيم الولاء ، لا تك كاشح
ها يدي ، يا مرافقي في جهادي ،   مد نحوي يد الوداد ، وصافح

واشنطن   جورج ديمتري سليم

مع الشاعر جورج صيدح
في رحلة العمر

بقلم حسان الكاتب

* * *

الحديث عن الشاعر الكبير جورج صيدح حديث طويل وله عدة جوانب .. ولن استطيع في هذا المقال ان اوفي هذا الانسان الكريم حقه من الوصف .. لان الحديث عن صيدح يتطلب مجلدا ضخما يتضمن دراسة عن الفترة الزمنية التي نشأ فيها وعن ادبه وشعره ورحلاته ومؤلفاته وعلاقاته الادبية الواسعة . وساكتفي في هذه الدراسة بعرض بعض جوانب الموضوع .

ولا بد لي ان اتحدث في هذا المجال عن صيدح الصديق ... فقد بدأت صداقتي معه منذ ان اهديته الجزء الاول من « الموسوعة الموجزة » ورد علي بالرسالة المؤرخة في ٣-٤-١٩٧٣ بقوله : « اغدقت علي هداياك كتبا ورسائل مثنى وثلاث وانعشتني انداء كلماتك واطياب عواطفك فكنت انيسي على غير وعد وطبيبي من غير عمد ، شكر الله فضلك وادام علي عطفك .

انا امام رسالتك المؤرخة في ٩-٣-١٩٧٣ واختها في ١٠-٣ ومجموعة الكتب كاملة مع اضافة نسخة من الجزء الخامس سابعث بها الى الصديق نعمة الحاج ليذيع كلمتك عن « جامعة الادب في اميركا » . انها بادرة تشجيع منك الى مؤسسة اسميه بين ادباء متفرقين لم يجتمعوا في ناد مرة واحدة ؛ وانا في الثمانين من عمري اصغرهم سنا ، ندوة الادب العربي في بونس ايرس اقوى وانشط ، ولم تستلفت انظار الدارسين .

ازدهاني حسن ظنك بالجزء الاول من ديواني وتقسم الثناء بينه وبين شقيقه الثاني رقم (٢) عددا ورقم (١) مادة وسترى كما سنرى . عن المبلغ الزهيد الذي قدمته فهو لا يقابل ثمن الورق والحبر والطبع والشحن ومعاذ الله ان اتصدى لمكافاتك على الجمع والتاليف والنشر فهو جهد جبار لا يفيه مال ولا عقار . احمد الله على تعرفي بك واشكر للاخ يوسف عبد الاحد وساطته الموفقة كي احصد على صداقة هي من معدن الابريز لا مثيل لها عندي في باريز . ودمت للمخلص المعجب »

ومنذ ذلك الحين امتدت صداقة صادقة بيني وبين الاستاذ صيدح ساعتز بها مدى الحياة .

سيرته الذاتية : في دمشق الفيحاء وفي « زقاق الصواف » قرب مكتب عنبر عام ١٨٩٢ ولد شاعرنا وكان سادس المواليد في العائلة قبل اثنين تبعاه . وكان والده قاضيا في محكمة استئناف الحقوق مدة ٣٠ عاما .

لزم المدرسة الابتدائية حتى ١٩٠٩ وكان مبرزا في العربية مقاطعا للدروس باللغات الاجنبية فعوقب من قبل اهله بسجنه في كليه عينطورا بلبنان بعيدا عنهم لكي يتعلم اللغة الفرنسية ، فدرس فيها عامين ونال الشهادة الممتازة عام ١٩١١ وكان ذلك اخر عهده بالدرس والتحصيل اذ اكره على ممارسة العمل الذي عقبه وهو التجارة ، فانتقل توا من عينطورا الى المتجر في القاهرة ، وصار غنيا من اغنياء الحرب ، ولكنه خسر ماله ومركزه بعد سنين معدودة وحمله الافلاس على الهجرة الى اوربا عام ١٩٢٥ في طلب الرزق ، ولما تعذر وجوده هناك هاجر الى فنزويلا وتاجر ٢٠ عاما متوالية . وفي سن الخمسين انسحب من ميدان الاعمال وفقا لعهدة بينه وبين نفسه وانصرف الى المطالعة والسياحة في انحاء العالم الى ان استقر في باريس .

وفي صدد الحديث عن اصل تسمية العائلة « بصيدح » وهل لهذه التسمية علاقة بعذوبة الصوت يقول الاستاذ جورج صيدح : « بحثت مرة عن شجرة اسرتنا وعن اصل التسمية « صيدح » فعثرت في خزانة جدي لوالدي « وكان تاجر اقمشة في خان قريب من الجامع الاموي في دمشق » على مجلد ضخم متين يضم صفحات التوراة والاناجيل ، مع صفحات بيضاء مضافة اليها ، وعلى هذه الصفحات كان جدي يخط تاريخ العائلة ابا عن جد ويسجل حوادث الميلاد والوفاة والعماد والزواج .. ويري جدي تسلسل البطون والافخاذ من قبيلة عربية زحفت من حوران الى دمشق . اما عن التسمية فيقول انها لقب غلب على الكنية الاصلية لما اشتهر احد اجدادي برخامة صوته في قبيلته ، يؤكد ان الاجيال المتعاقبة لم تخل من صاحب صوت رخيم مبرر اسم « صيدح » ويذكر أطرف حادثة جرت له سنة الستين ، اي سنة المذابح والفتنة الدينية فقال ما معناه : « لما هاجم بيتنا الرعاع بسكاكين وخناجر مصبوغة بدم الجيران عرفني واحد منهم كان استضافني وسمع غنائي فمنع رفاقه من الفتك بي على شرط ان اجود على مسامعهم ببعض الايات القرآنية ففعلت ونجحت في التأثير عليهم ؛ فما كان منهم الا ان البسوني عمامة بيضاء وجروني الى مئذنة الخراب وطلبوا مني ان اؤذن . فاذنت واشتريت حياتي وحياة عائلتي بهذا الثمن .

وقد سمع بالحادثة الامير عبد القادر الجزائري فارسل قبل المغرب رجالا من حاشيته نقلوني مع عيالي الى قصره حيث بقينا في حمايته الى نهاية الاضطراب » .

صيدح المهاجر : اما عن هجرته فيحدثنا المترجم فيقول : وبعد ان افلست تجارتي في مصر . وانقطع رزقي في اوربا بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ ، اقدمت على ما يشبه الانتحار بالنزوح الى فنزويلا احاول ملكا او اموت فأعذرا . . » فدخلت دنيا عجيبة موحشة . بين مهاجرين عرب يتراطنون بالاسبانية المستعربة ؛ متفرقين في البلاد الشاسعة ؛ لا متاجرهم مجتمعة في سوق ، ولا منازلهم متقاربة في حي ، فلم يتعارفوا ويتآلفوا كما في سائر المهاجر الاميركية : بل اندمجوا في المحيط الاجنبي، وتعودوا الكلام بلسانه : حتى ثقل عليهم اللفظ العربي ، واصبحت الاسبانية لغة الحديث في بيوتهم ومجتمعاتهم . فكان علي ان اتعلم الاسبانية وانسى لغتي وعروبتي لكي اختلط بهم ، بنية الحصول على عمل يقوم بمعاشي ، فلزمت غرفتي في الفندق الزري واخذت بالدرس آناء الليل واطراف النهار .» .

شعره ومؤلفاته : ويقول الشاعر المهجري الكبير في صدد بداية تجربته الشعرية « كان اول ما نشرت عام ١٩١٠ في جريدة « البرق » لبشارة الخوري ثم توالت قصائدي على « سركيس » اثناء اقامتي في القاهرة فلم تخل مجموعة منها ، مع العلم اني كنت غارقا في بحر التجارة ، لم اتعلم العروض في المدرسة ولم اقتن معجما عربيا الا في الارجنتين بعد التقاعد من الاعمال التجارية » .

هذا شيء عن جورج صيدح الانسان اما صيدح الشاعر فاننا نجده في ديوانه « النوافل » الذي اصدره عام ١٩٤٧ وديوانه « نبضات » الذي طبعه في باريس عام ١٩٥٣ وكتابه « ادبنا واباؤنا في المهاجر الاميركية » الذي اعيد طبعه ثلاث مرات خلال الاعوام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٦٥ . واصدر عام ١٩٧٢ طبعة جديدة من « ديوان صيدح » الجزء الاول ؛ كما اصدر عام ١٩٧٣ الجزء الثاني من هذا الديوان .

وسنتحدث فيما يلي عن كل من هذه الكتب :

١ ــ ديوان النوافل : لقد طبع الشاعر ديوانه هذا وجعل ريعه لحساب لجان « الدفاع عن فلسطين » وهو يقع في اربعة فصول . يشمل الفصل الاول قصائد الباكورة الاولى في الوطن والثاني يشمل بعض قصائد الهجرة الاولى الى مصر . والثالث يشمل بعض القصائد التي نظمها الشاعر في اسفاره في اوربا وغيرها وخص الفصل الرابع ببعض قصائد المهجر الاميركي .

والذي يقرأ ديوان النوافل يتأثر بناحيتين الاولى الحنين والوطنية والثانية الوصف ومناجاة النفس وقد غلبت في الحالتين المسحة الوطنية التي دلت على عاطفة صادقة .

فهذا هو الشاعر في مصر وفي بداية هجرته يتذكر بلده الحبيب فيقول :

اذا البلبل الفرد فارق روضه   فكل رياض الكون في عينه قفر

وداعا دمشق الشام لم يرحم النوى   دموعي، ولم يشفع بي السهد والزفر

واني لطير من طيورك لم تزل   تجاذبني تلك الحدائق والنهر

وفي نهر بردى الخالد يقول :

ملأت منك يدي بعد امتلاء فمي   ولو قدرت ملأت الصدر والكبدا

حتى اقول لنهر سامني ظمأ   في غربتي، «لن تراني ظامئا ابدا»

وهذا شاعرنا يحز في نفسه بعده عن وطنه حين يركب الباخرة ليمخر عباب المحيط الى اميركا عام ١٩٢٧ :

للشام ارواحنا يا بحر ، ما طمعت   امواجك الهوج الا في بواقينا

ها نحن فالتقف الاجسام هامدة   واثر عليها نديف الموج تسرينا

وخل ارواحنا تطفو مولية   شطر الديار تحيي من يحيينا

وفي شعر الوصف والنفس يقول في قصيدة وطني :

شاعر يرجى ولا يرجو ، ولم   يسجد للاصنام يوما ما سجد

تتحداه النكبات استنسرت   كلما زاد اناة وجلد

عاف ورد الماء فيه ولغت   حشرات القوم فاستسقى البرد

ويبدع الشاعر في وصف ناطحات السحاب في نيويورك فيقول :

كوى تطل على الافلاك اعينها   والنهى تستقي اخبار باريها

انوارها تكشف الافاق معلنة   عن سلعة بما الافلاك تشريها

٢ ــ ديوان « نبضات » : في هذا الديوان نلاحظ زفرات الالم القومي والايمان العربي الذي يصور حنين الشاعر وشعوره الوطني واحاسيسه وعواطفه الجياشة كقصيدته في ابنته ساعة اجراء عملية جراحية :

رفقا بها يا مبضع الجراح   شرحت قلب الوالد الملتاح

وتارة اخرى تتبدى الاحاسيس الوطنية له ولومه لبني قومه فيقول :

ولو صدق الجهاد لما رأينا   انوف العرب تمرغ في الرغام

٣ ــ ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية : لقد وضع شاعرنا المهجري هذا الكتاب حين كلف ان يحاضر طلاب معهد الدراسات العربية العالية عن ادب المهجر بطلب من مفكر العرب ساطع الحصري .. وهنا تبدو لنا موهبة صيدح كباحث اديب حين يهادن عالم الشعر وينصرف لعالم الدراسة والبحث فيعيش من جديد مع ادباء المهجر وشعرائه ومفكريه يدرس ادبهم وشعرهم دراسة اديب عايش اكثرهم وعرف الكثير من حياتهم الادبية الخاصة منها والعامة : فاظهر منها وما خفي فاشتملت المحاضرات تاريخ الهجرة وبواعثها وتياراتها وحظ الادباء منها ونشأة الادب المهجري ومراحل نموه واثره في الادب العربي العام وخصائصه ورسالاته ونواحي نشاطه ، الى مآخذ خصومه عليه . وصدرت هذه المحاضرات في كتابه سنة ١٩٥٦ في القاهرة بعنوان « ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية » ثم اعيد طبعه في بيروت سنة ١٩٥٧ كما اعيد طبعه للمرة الثالثة سنة ١٩٦٤ وقد اضاف اليه دراسات جديدة عن ادباء اغفلهم في الطبعة السابقة ولم يعط عنهم معلومات شافية ، الى دراسات اخرى استطاع ان يتوسع في معالجتها بفضل الاتصالات والتحريات والمطالعات التي اتيحت له خلال سبع سنوات مرت على كتابة

عاد الربيع

عاد الربيع ، وعاد الزهر والارج
ان آنت تم تذكري آذار مبتهجا
فكل نيسانة لم تأل تهتف بي
اولاني الحب من ايامه عبرا
من كان يالف نسياني ، ويمنعني
باق كما كان ، حلوا لا اشوهه
عاد الربيع ، فهل حلم يؤوب بنا
ما زلت اهواك، ان تسلي وان تسلي
هل تذكرين سماحات نطوف بها
ماهمنا الناس، لم نسلك كما سلكوا
لما توحد عمرانا ، وابهجنا
ضاع الزمان ، فلا ماض يؤرقنا
ونحن والفجر خدنا رقة ونهى
يا بهجة العيد، انت العيد فابتسمي

لا تكتمي الشوق ، ما في حبنا حرج
ولم يهزك عيد صادح ، هزج
وكل خافقة ، في البال تختلج
وزفني القلب نبلا ما به عوج
ما كان يمنحني هدب له ، غنج
ابكي وافرح ، اذ يبكي ويبتهج
وهل يعربد ، في اعراقنا ، وهج
اني لسان ، بآيات الوفا ، لهج
ان ضل خطو بنا ، او تاه منعرج
في الحادثات ، ولم ننهج كما نهجوا
ضوء يقطر في ضوء ، ويمتزج
وليس الا غد ترنو له المهج
هل يحزن الليل ان الفجر ينبلج
لا بد يطلع ، بعد الشدة ، الفرج

فوزي عطوي

ألطبعة السابقة . وقد برزت مواهب الشاعر المهجري الكبير كاديب محقق وباحث منصف ، وناقد لا تفوته النمزة التي تهدي القارىء الى الهفوات التي وقع فيها الشعراء أو انزلق اليها الادباء ؛ والى نقده الموضوعي اللاذع ، كان المحامي البارع المتحمس لرسالة الادب المهجري ، فاصبح كتابه ، على كثرة ما صدر من الكتب والرسالات عن الادب المهجري، اصبح من اصدق واوسع واوثق المراجع له ، فهو بحق موسوعة كاملة في هذا الميدان ، ومن قصائده البديعة التي نظمها بمناسبة المولد النبوي الشريف بعنوان « محمد » يقول :

وجه اطل على الزمان … لالاؤه شق العنان
فيه شعاع النيرا … ت وفيه انفاس الجنان
عاقب قريش به ، اما … يكفي قريش الازهران
من ذا رأى طفلا ينا … غي الله بالنبع الثان
نبذ الشمائل وهو في … مهد الرضاعة والحنان
يا صاحبي : باي آ … لاء السماء تكذبان

والقصيدة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر .

وفي « ديوان صيدح » الذي صدر عام ١٩٧٢ و١٩٧٣ (الجزء الاول والثاني) يروي فيهما قصصه الذاتية وقصص نضال امته ؛ فبينما نعيش معه في واحة من الانس والنعيم ، نطرب للنغم ونحلق بالكلمة الشاعرية التي تدغدغ احاسيسنا ، اذ بكلماته تتغلغل في بعض المواقف الى شواظ من نار على رأس المستعمرين وعلى الذين كانوا سبب نكبة فلسطين حكايات طويلة ، يرويها من اغترابه : عن الوجد والحنين ، عن الالم والانين ؛ ومعايشاته مع خلانه ، وتوازع الجمال التي تثير وجدانه؛ وليالي الصفو التي تهز مشاعره وترقص كيانه والاحداث التي تنزل بقومه فتثير اشجانه . كل هذه الالوان المتباينة بآفاقها واشواقها واصدائها واهوائها انتظمت شعرا سهلا حلو النغم شعر الديباجة الانيقة والنغم المرح الطروب والعاطفة الصادقة المرهفة .

هذا بالنسبة لما نشره صيدح وهناك ما لم يطبع فهي حكايات حداثته ونكبات تجارته ومشقات غربته .

دمشق — حسان الكاتب

المراجع :

١ ـ ديوان صيدح (الجزء الاول والثاني) .
٢ ادبنا وادباؤنا في المهاجر الاميركية لجورج صيدح .
٣ ـ ادب المهجر لعيسى الناعوري
٤ ـ الادب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي
٥ ـ شخصيات من الادب المعاصر لوحيد الدين بهاء الدين
٦ ـ النبي محمد صلى الله عليه وسلم
كلمات باقلام نخبة من الباحثين والادباء المسيحيين المثقفين من منشورات مجلة التمدن الاسلامي بدمشق ١٩٦٢ .
٧ ـ مقال بعنوان « من مآسي الهجرة » لجورج صيدح .

اخي شفيق معلوف

القيت في حفل تأبين الشاعر شفيق معلوف
الذي اقيم في الكنيسة الشرقية بزحلة
يوم ٢٦ / ٦ / ١٩٧٢

*

حزن الشعر يا اخي وتأثر … وبكى حسرة عليك المنبر
والقوافي تيتمت نائحات … باكيات عليك كم تتحسر
احرق الدمع مهجتي وضلوعي … يا لدمع كالنار ملء المحجر
جمد الدمع في عيوني حزنا … وعلى جفني الكئيب تسمر
يا شهيد اليراع والوطن الغالي … الذي مجده بمجدك يكبر
عمرك الان بالخلود مديد … انما في الحياة كان الاقصر
نحن كنا ثلاثة نتغنى … من ضفاف الوادي لارض المهجر
فاحتللنا في دولة الشعر صرحا … اثر صرح ومنبرا بعد منبر
كان فوزي على بساط مع … الريح وراح الشفيق يقصد عبقر
وانا في الحياة صرت وحيدا … بين هذا وبين ذاك محير
لست اخشى الممات بعدكما اليوم … وماذا في فضلة العمر احذر
فالى موعد قريب لقائي … معكما في الاثير .. لن اتاخر

شعرك السحر والبلاغة فيه … فهو عقد منمنم ومجوهر
ملك الشعر انت امس … ولك الصولجان ذا فتصدر
لا تسلني عن سكرتي بالقوافي … دع اخاك الرياض بالشعر يسكر
نشوتي هذه من الشعر كانت … من دنان الشفيق من فم عبقر
فقد الشرق عبقريا عظيما … فيك من شفيقه اليوم اشعر
ايه لبنان والمصاب عليه … كمصاب الحروب ادهى واكثر
كم به كنت دائما تتغنى … وعلى حربه اسى تتأثر
وتتبعت حربه باهتمام … هم لبنان كم حياتك كدر
فالرسالات كلها استفهام … عن مآسيه راجيا ان ينصر
نصر الحق يا اخي فتطمئن … غدنا باحرفه سوف نفخر
قلت فيه شعرا بديعا جميلا … رددته الرواة في كل محضر
هذه زحلتي من الحزن جنت … وهي تبكي عليك لا تتصبر
لك شعر فيها يذوب حنينا … وهي دوما شفيقها تتذكر
بلدة الشعر كم عشقت سماها … وثراها وكم يراعك صور
نهرها .. والكروم فوق الروابي … ثم وادي الفردوس ..ووادي الكوثر
وهي ترجو بان تعود اليها … ثم في قلبها ضريحك يحفر

عصبة الشعر انت كنت لواها … ذي عكاظ فيها البلابل تسحر
هاك لبنان يملأ الكون شعرا … اي شعر بشعره ما تأثر
كل فرد منا اراد اغترابا … حمل الشعر والطموح .. وابحر

يا زميلي .. ويا شفيقي المفدى … يا جناحي الذي هوى وتكسر
لك قلب على الجميع شفيق … وطباع كأنها نفح عنبر
كيف انسى اخوة غمرتني … منك دوما وكيف لا اتذكر
كنت انت .. الانسان قولا وفعلا … وفعال الانسان تبقى .. وتذكر

زحله ـ لبنان

رياض معلوف



وحيد الدين بهاء الدين

فيليب لطف الله شاعراً وانساناً

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

***

اقول وقولي ليس بجديد : ان الشعور الانساني منبع الشعر ومضبه (١) ...

يمعنى ان الشعر يتفجر من الاعماق هادئا او صاخبا ، لياخذ طريقه بكل روافده ، عبر الخلايا والحنايا ، ليصب في نفوس الاخرين : اي في احاسيسهم ، وهي تتقبله اما راضية راغبة واما ساخطة راغمة ... ذلك مرهون بالمزاج الذاتي ، وموقوت باللحظة الشعورية الانية ..

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه   فليس خليقا ان يقال له شعر

هذا ما قاله جميل الزهاوي ، ترى ماذا يقول فيليب لطف الله :

لما الشعر الا ما يهز شعورنا   وينفذ في النفس بالدفء والبرد

واخلص الى ان الشعر اذا افتقد مسوغات الفن : الجمال وروحه .. الصدق وفحواه ، الحركة ومداها ، صار هو والتخريف او التزييف كائنا واحدا ..

واشرب الكوثر السلسال مندفعا   من الينابيع يروي الترب كالديم
اردد الكاس ملأى من مناهلها   ... عابقة بالطيب والقدم
تمر بي نسمات الروض عاطرة   بالحب تحت ظلال الدوح والخيم
من نبع صنين من افواه كوثره   قد استقيت رحيق الشعر والكلم
ومن علاه اتاني الوحي منهمرا   كالغيث يهطل بالايات والحكم
الجو صاف ولا غيم يكدره   والشمس تنشر خيط الحب في الاكم
ويخطر البرد في ليل الهدى دنفا   ينير سبل الهوى في حالك الظلم
ويرسل الناي الحانا ترنحنا   والطير تطربنا بالشدو والنغم
والماء اغنية الينبوع تسمعنا ،   لحنا فريدا وهمس الحب في النغم
والناس تمرح في حقل وفي عمل   والعيش يحلو لراعي العنز والغنم
هي السعادة في الدنيا لطالبها   ففي القناعة كنز الناس كلهم

تلك هي نقطة البداية بالقياس الى فيليب لطف الله في قول الشعر والاسترسال فيه على طبعه بلا تصنع وتنطع . بينما هو يعبر عن ما يجيش بخاطره ، وينازع ضميره : ويصور ما يدعوه الى الانصياع له واستيحائه بالرغم عنه ، من شرائح الحياة وخبيآت النفوس واسرار الطبيعة والوجود . هكذا الفن ..

ما لليالي تجافيني وتظلمني   اضعت نجما قضيت الليل ارقبه
عيناي ما عرفت غمضا وارقني   ليل طويل كمام الشؤم احسبه
زهر النجوم تجنت وهي ساطعة   لكن نجمي غيوم الهجر تحجبه
تحلو الكواكب افق الحب يجمعها   انا المحب الذي جافاه كوكبه
انا المعذب من دهري ودورته   متى يدور بافق السعد عقربه

ثم يقول وقد رقت حواشيه وعمقت نظراته :

ارسلت صوتي مع الامواج مرتجيا   على الاثير جوابا منه ارقبه
فجاء رجع الصدى والموج يحمله   كم عاشق في عبابي خاب مازبه
والبر اقفر لا جن ولا بشر ...   قد دار ناب الردى حولي ومخلبه
استغفر الله في حب اعيش له   فصار شهد الهوى كالسم اشربه
ايقنت ان الذي في القلب مسكنه   ما رق قلبا فاضناني تصلبه

من هنا قال فيليب لطف الله ، الشاعر المهجري ، ورئيس جامعة القلم بسان باولو في مقدمة ديوانه (٢) (حصاد الايام) : (اما انا فانني انظم الشعر مدفوعا برغبة داخلية ولذة نفسية كمن يدمن الكحول او التدخين ولا يمكنني التملص من هذه العادة .)

على سريري وليلي ما له سحر   ليل المصائب لا زهر ولا قمر
رهن الهواجس والافكار تنهكني   ما اتعب المرء ان شطت به الفكر
اغوص في بحر احلام مشتتة ...   تمور في لجها الاصداف والدرر
ولست ادري اخيرا منها ارقبه   ام في عواقبها الارزاء والغرر
ليت الرزايا التي نادت بكلكلها   بعد العشية لا يبقى لها اثر

كذلك انظر الى هاته الابيات المنتزعة من الكبد :

وداعا ايها البيت المريح   ورفقا كيف اضناني البروح
وكنت لاسرتي قصرا منيفا   وصرحا لا تعادله صروح
شمخت على المساكن والروابي   ودون علاك تنخفض السفوح
وكم اكرمت من ضيف عزيز   ومن الف السخا لا يستريح
وحولك جنة ورياض انس   سياج نسجه ورد وشيح

وما ذلك الا نتيجة طبيعية لعملية كظم وتسام ، جذورهما ضربت في اغوار الذات .. فالعنف في التجربة الشعورية والاخلاص في تخير القيم التعبيرية الموحية ثم الملائمة بين تلك التجربة وهذه القيم على صعيد من الاصالة والتوتر ، هو الصفة الظاهرة على عدد من قصائد الشاعر ومقطعاته ..

فيليب لطف الله في شعره داعية محبة ، حتى لكانه لا يرى في الوجود غير المحبة وانوارها المتراحبة ، ولا يسمع الا اصداءها ومردداتها ، وهي تتناهى اليه من بعيد تارة ومن قريب اخرى ، ولا يتنسم الا اريجها وهو فائح هنا وهناك ، ينعش قلوبا عليلة ، وافكارا خابية ، محيلا ما بها من سخائم الى رجاء وتفاؤل وخضرة دائمة.

ديني المحبة في قولي وفي عملي   وحرمة الحب من شرعي وايماني

فالمحبة بمعناها الصحيح تقتحم قلاعا حصينة وتغسل نفوسا مريضة ، وتبدد ظلاما مرخى دواما ثم تقتلع الظلم

من عروقه الممتدة .. من هذه الارضية التي يستوي عليها فيليب لطفالله وجد ضالته المنشودة في المحبة.. والمحبة وحدها :

وانشر الحب فالحياة وئام ... وولاء وخدمة وعطاء
يفتح الحب للسماء سبيلا ، ... عبدته بآيها الانبياء
كن محبا فترهم الحب يشفي ... داء قوم في حقدهم ضعفاء
وانشر الحب فهو نور البرايا ... اسبغته على العباد السماء

هذا دستور الشاعر في محبته : محبة الله والوطن .. محبة الناس والفن .. محبة كل ما يمت الى خير أخيه الانسان ورفعته ودفعه الى الامام .. كيما يثبت وجوده ويحقق مطلبه في هذا الوجود : .. ما اسمى ما يقول :

هو الحب ما ادراك ما فعل الحب ... هو خلجات النفس ان نبض القلب
هو النور في الدنيا يشق ظلامها ... فلا شمسه تفنى ولا نوره يخبو
هو قوة الدنيا ويرد سلامها ... ومرشدها للسلم ان نشرت حرب
هو محور الدنيا وميزان عدلها ... اذا فقد الميزان قد فقد اللب

والمحبة بعد هذا كله سراج وهاج يهتدي أبدا الى الاشراقة الروحانية والنقاوة النفسية ، وبهما تتحقق الحياة في اصلها الثاني :

فلا شيء في الدنيا سوى الحب دائم ... ولا شيء يهديهم اذا فقد الحب

ويقول فيليب لطف الله :

فما الحياة سوى حب نعيش به ... من فاته الحب عاش العمر كالحجر
هل تعبدين اله الحب قانعة ... كم في صلاتك من حب ومن عبر

ويبدو ان وظيفة الشاعر لا يراد لها التوقف عند هذه الصيغة ، بل يدعونا وغيرنا الى الاغتراف المتصل من ينبوع المحبة ومن غير ابطاء وتريث اشراكا للاخرين معه ، لتعميق معناها وترسيخ مغزاها :

احيا بهم ، احيا لهم ، احيا على ... حب يقوم على الوفاء الانقى

كذلك يقول في قصيدة (دولة) :

ما الحب الا منهل عذب ... يجري مع الاهواء والارب

ثم انظر اليه يقول في قصيدة (ثوب الوفاء) :

وما الاعمال الا نسج حب ... وان الحب مفتاح السماء

كما انه يقول في قصيدة غيرها :

وكن محبا فان الحب جوهره ... في كل قلب كريم النفس مفضال

على ان فيليب لطفالله يفصح عن تأثير الحب وفاعليته على مستوى الفرد والجماعة على نحو من الانحاء جميل :

فالحب في الناس امال تعيش بها ... والبغض آفة كفار وظلام
الحب يرفع قدر المرء يكسبه ... محبة الناس من قدر واكرام

مهما يكن من شيء فان موقف الشاعر الايجابي يعيد لنا مواقف الصوفيين والمثاليين ، والذين وقفوا حياتهم على تطهير القلوب من الشرور والاوجاع ثم الانهاض باقدار الاخرين فوق مراتب الشهوات والدنيات واقتلاع جذور الانانية والشحناء من اعماقهم : لتحل محلها القيم الرفيعة والاحساس الصادق بها ليكونوا نماذج صالحة في السيرة والسلوك وهم يخطون درب الوجود الطويل :

امنت بالله حبا في خلائقه ... امنت بالحب ان الحب ايماني
دين المحبة للاكوان يجمعها ... ما فرق الناس الا كل شيطان

الا ان هناك ــ كما احسب ــ ربطا موضوعيا بين هذا الذي سلف التوقف عنده بعض الشيء ، وما يقتضي التعريج عليه بعض الشيء ايضا ..

رجال المال والاعمال بحكم ما يعانون ويعملون الفكر من اجله ، يتميزون بقدر كبير من الذهنية المادية في تفاعلهم مع الاحداث وتعاملهم مع الناس.. كذلك يفتقدون اغلب الاحايين ، في ذلك كله ، الجانب الروحي لانهم يرفضون غير الايمان بقيم معينة ، وغير الاهتداء بمقاييس خاصة بهم ..

اما فيليب لطفالله الصناعي والمالي ، فيشذ ومعه ــ بالضرورة ــ اخرون عن هذه القاعدة ــ ولكل قاعدة شواذ ــ كانسان تسمو به خلال ومبرات ، ترامى الي بعضها من بعيد ، وحدثني عن بعضها الاخر من خالطه وخبره .. لاقاه واختبره ..

معناه : ان فيليب لطفالله في تعامله المادي هو نفسه في تعامله الادبي .. رهافة في الحس .. سخاء في العطاء .. نبل في القصد .. ذلك حسبه .

بديهي أن هذا السلوك لا ينتهجه الا من كانت المحبة والشعور العميق الشامل بها ، دينه وديدنه ، والتعاون على البر والتقوى شعاره ، والاريحية آية من آيات اعماله وتطلعاته الدائمة :

على الاعمال تزدحم البرايا ... وحاجتها الى خبز وماء
وما الباقي سوى فضلات عيش ... واطماع سرت في الاثرياء
اذا الريت لا تنس جياعا ... فان الخلق يسمو بالسخاء
وان تسعد بعيشك كن رؤوفا ... على من عيشهم عيش الشقاء
فقد يسطو الزمان على غني ... ويصبح بين اشداق البلاء
فلا شيء مع الايام باق ... كذاك يزول مجد الاغنياء
فكم من ثروة هدرت ومجد ... مضى من حيث جاء على السواء

فيليب لطفالله في مصادره الشعرية والثقافية وان كان يعول على واقع الحال والحياة ، فهو يقول : (ان الشعر موهبة تكتمل بالدرس والمران والمتابعة الدائمة) (٣) ..

صحيح ذلك ..

متى كان الفنان والمفكر يستمد محصولاته ومضموناته من اللاشيء .. من العدم .

ومتى كانت الموهبة تكفي وحدها ، لخلق هذا

الفنان وذاك المفكر ، ولتحقيق غرض ما مهما يكن حظه من الاهمية والقيمة .

انما صهر الموهبة الانسانية في بوتقة الزمن تارة والحياة اخرى ، بغية الكشف عن ما بها من بعد ومدى وعمق ، يفرض المعاناة والصقل ، ويتطلب الدراية والشجاعة ..

ولقد تجلت لي وانا اتابع شعر فيليب لطفالله ، خاصية ، لعلها أميز ما لديه ..

ذلك تمثله للافكار والمعاني ثم تمكنه من التخليق بها ما وسعه . في الوقت الذي يحاول أن يكون له دوره الايجابي في عملية الخلق الجديدة ، باضفاء ذاتيته الحساسة عليها من ما يجعلها تدل على الجدة أو تشف عنها ، وتدعو الى التأمل والامعان ..

من هنا يقول فيليب لطف الله في قصيدته (تحت مبضع الجراح) :

ما زلت في عزمي واوج كفاحي   رغم الكهولة ما رميت سلاحي
اشدو ويطربني صداح مغرد .   نشوان بين الغيد ...

ويستطرد قائلا :

يا ايها الاسي ترفق بالذي   يشكوك من الم ولمع جراح
عاش الحياة ولم يكدر صفوها   مرض ولا عرفت سوى الافراح
ما زال في شرخ الشباب بروحه   ما الجسم الا مسكن الارواح

قصيدة متسقة معنى .. مسربلة باشعاع الحياة بكل اشواقها ، وألموت بكل جبروته . انها ترطب الامزجة اللاهبة وتملأ النفوس بشحنات المقاومة والتصدي لغوائل الزمن وفواتك الامراض ..

وعلى الرغم من ذلك كله ، فانها تنقلنا الى جو قصيدة اخرى سبق ان عرجنا عليها لروعتها واصالتها ، تلك هي قصيدة (تحت مبضع الجراح) لشاعر المهجر الكبير جورج صيدح ، قالها في ابنته الوحيدة (جاكلين) ، عندما اجريت لها جراحة :

رفقا بها يا مبضع الجراح   شرحت قلب الوالد الملتاح
ان رمت ايلاما فصحت تجلدي   وجمعت بين صياحها وصياحي
والله لو اطلقت روحي لارتمت   تحت النصال تصدها بجراحي
هذه القطاة القاصة من ريشها   تكفي اذا انتثرت لقص جناحي
ماذا جنت وهي الفطيمة في الربى   حتى تذوق خسارة الاقداح
بالامس مدت عنقها من وكنها   واليوم تشهد مدية الذباح

تغنى شعراء المهجر الشمالي والجنوبي بالطبيعة ، مظاهرها ومفارقاتها وفصولها الاربعة ، معبرين من خلالها عن ذواتهم التي يهزها الشوق والحب والحنين الى تراب الوطن . منهم جبران خليل جبران . وميخائيل نعيمه وعبدالمسيح حداد ووديع رشيد الخوري ومنهم شفيق معلوف وشكرالله الجر وجورج صيدح ، وفيليب لطفالله ..

وفي شعر فيليب لطف الله تتألق الطبيعة كما هي من غير اصطناع : شأن الفنان المطور الذي يستقي لوحاته بجزئياتها وكلياتها من المشهد الماثل امامه ، وان حاول محاولة مخلصة ان يفيض شيئا من نفسه عليها لتتكامل من الوجهة الفنية ..

والفصول الاربعة التي قال فيها فيليب لطفالله شعرا ، طرقها قبله اخرون شعرا ونثرا ، من القدامى والمحدثين ، وفي الشرق والغرب .. على ان جولة في بطون المظان والمراجع تطلعنا على ان لكل واحد من هؤلاء، صبغته المميزة في الاداء ، وطريقته الخاصة في الوصف والتصوير ، وقاموسه الادبي ـ الشعري او النثري ـ الذي اعتاد الركون اليه والاستمداد منه ..

فقد قال فيليب لطفالله حين وصفه فصل (الشتاء)

جاء الشتاء فلا زهر ولا ثمر   وفي عواصفه الايات والعبر
يقضي على باسقات الروض ان هرمت   وفي البرية يقضي حكمه القدر
يمضي القديم ويبقي بعده خلفا   يجدد النشء فيه الكون والبشر
فما الحياة سوى آت ومرتحل   والليل مهما دجا في قلبه السحر

اسلوب مباشر .. هادىء يأبى الاغراب والجنوح، ثم يشف عن بساطة الصورة الشعرية .. يذكرني في هذه الحالة ، بمقطوعة (الشتاء) الشاعر التركي المجدد احمد هاشم .. حيث يقول :

اقبل الشتاء . يا لها من نظرة للشمس في الغروب
ها هي ذه الطيور سارحات في الافاق ..
يتعالى انينها وحنينها
لاوكار عبثت بها قسوة الطبيعة ..
اقفرت السهوب وهجرت ،
وعليها بحلول الشتاء خيم السكون ..
وعلى امتداد الارض الصفراء ،
لا يتراءى للناظر غاد ولا رائح .. (٤)

ثم يقول فيليب لطف الله في قصيدته (تحت مبضع الجراح) :

لولا القباحة ما عرفت ملاحة   فمن القباحة ميزة لملاح

بينما الشاعر ـ ولعله علي بن جبلة المشهور بالعكوك ـ قال قبل ذلك :

ضدان لما استجمعا حسنا   والضد يظهر حسنه الضد

وقال فيليب لطفالله :

مهما نحاول في اطالة عمرنا   فهناك يوم مؤذن برواح

اي : (لكل اجل كتاب) .. صدق الله العظيم .

وجاء في الامثال التركية ما ترجمته : (ثمانون .. تسعون ، والعاقبة يوما ستلاقي المنون ...)

وضمن فيليب لطفالله عددا من قصائده المستمدة من الواقع المعاش على مستوى الزمان والحياة ، حكما

الافق الاخضر

لو ابحرنا في النهر العاشق
لعرفنا وجه الريح .. وذقنا اسرار الرحلة
لو ابحرنا في الفجر الى ذاكرة المنبع
لغنمنــا المركب والربــان
ولما اهترأ الانسان على ابواب قرانا
لو كنا نعشــق حقا افراح الرحلة
لراينا اشجار الضفة
وخلعنــا احذيــة مسحوره
لو كنا نعشــق حقــا
لخرجنا من دائرة بساط الريح
ولم نقض العمر سكارى في المرفا
آه .. لو كنا نعشق حقا ، لارتفع المزلاج
وتخطينــا جمجمــة المجهول
« ورسونا في الافق الاخضر »
من ياخذ مني عمري المهراق
ويعطيني افراح الرحلة ...
من ياخذ مني عمري المهراق
ويعطيني يوما في الافق الاخضر

الناظور ـ المغرب — القمري الحسين

وأمثالا ، جديرة بالتامل والتفكير .. يقــول في قصيــدة (السر المبهم) :

المرء يشقى في الحيــاة وينعم	ومجيئــه وذهابــه لا يعــلم
فله فن الدنيــا نصيــب واحــد	مهما تنوع فهــو حكم مبــرم
فالبعض يقضي العمر يكدح ساعيا	خلف النضار وقد جفاه الدرهــم
والبعض في متع الرفاهــة غارق	من خــير دنيــاه يعيش وينعم
ان الذي قسم المواهــب والنهى	ما كان يومــا للعقــول يقســم

كذلك يقول في قصيدته (سر الوجود) :

ما السر في الانســان والاكــوان	في ذا الوجــود وكثــرة الدوران
ناتي كما نمضي وياتي بعدنــــا	من صلبنــة للمهــد والاكفان
تبدو الطبيعــة جنــة بستانها	وهوائهــا وجمالهــا الفتــان
فنرى الحياة تمور في الانســــان	والاشجار والاشياء والحيــوان
ويد الممات تعبث بالاحيــاء	والاشجــار والاشيــاء والبنيــان
ونرى المنية والحيــاة تآخنــا	في حلقــة التكويــن تلتقيــان

يعني من ما سلف ان هناك شيئا اسمه (تشبــع اللاحق بالســابق) .. لا يتغابى عنه ولا يمكن ان يتغــابى الا المكابر ... المجانب للحقيقة الادبية والعلمية .

ولكن هذا (التشبع) ما هو الا توطئة في الفــن الشعري ...

وحكمة الفن في خطواته : تشبع .. ثم تطور .. ثم تجدد ..

الاعظمية ـ بغداد — وحيد الدين بهاء الدين

---

(١) انظر بحث (حافظ جميل : الشاعر الوجداني) في كتابي (من الادب العربي الحديث) ص ٥٢ .

(٢) وللشاعر ديوان اخر عنوانه (نسمات الجبل) . وسبق ان نوهت به في مقال لي عنوانه (نسمات برازيلية) انظر مجلة (الكتاب) البغدادية .. كانون الاول ١٩٧٤ .

(٣) انظر مقدمة ديوان (حصاد الايام) سان باولو ـ البرازيل ١٩٧٥ .

(٤) انظر كتابي (اعلام من الادب التركي) ص ٨٢ .

محمد لبيب البتنوني

بقلم الدكتور محسن جمال الدين

*

ادب الرحلات ، من الاداب السامية العالية ، التي تفيد صاحبها بما يطلع عليه من انماط الشعوب ، وحياة المجتمعات ، وغرائب الدنيا ، وعجائب الكون .

والعرب امة من الامم ، التي وهبتها الطبيعة طاقة على احتمال السفر ، وطول المسافات ، ووحشة الطرق ، والتعرض للمخاطر ، لا يثنيها برد الشتاء ، ولا يقعدها هجير الصيف ، ولا تخيفها ضاريات الوحوش ، مع قلة الزاد ، وضآلة المؤونة .

وقد سجلت صفحات التاريخ الاسلامي والعربي الكثير من اسماء الرواد البارزين في هذا الحقل ، واشير الى اسماء مؤلفاتهم في القديم . منه ما هو مطبوع اليوم ، ومنه في طيات الخزائن وعند الرفوف الحبلى بالمخطوطات في دنيا المشارق والمغارب .

ولقد قام (دي غوتيه) الهولندي (١٨٣٦-١٩٠٩) بنشر (المكتبة الجغرافية العربية) ١٨٧٠ - ١٨٩٤ حيث نشر لنا مجموعة نفيسة منها :

١ - التنبيه والاشراف - للمسعودي .
٢ - نزهة المشتاق - (قسم المغرب والاندلس) للادريسي
٣ - احسن التقاسيم - للمقدسي .
٤ - المسالك والممالك - لابن خرداذبة . وغيرها من الكتب والدراسات .

وجاء نفر اخر من المستشرقين اهتموا بهذه الناحية ، والفوا في عالمها الجغرافي الادبي . وفي مقدمتهم المستشرق الروسي (اغناطيوس كراتشكوفسكي) .

ثم درس ادب الرحلات ، وعرض شخصيات بعضهم نفر من الاساتذة المعاصرين منهم :

الدكتور زكي محمد حسن والدكتور صلاح الدين المنجد والدكتور نقولا زياده واحمد ابو سعد وغيرهم .

كل هؤلاء تحدثوا عن عظمة الرواد العرب والمسلمين الذين غامروا بحياتهم في سبيل المعرفة للانسانية ، واكتشاف المجهول للبشرية . كما تحدثت (المقتطف) في مجلداتها عن (الرواد) في العالم الاوروبي والدنيا الجديدة .

ان ابن حوقل والهمداني والمقدسي وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة تظل اسماؤهم نجوما لامعات في عالم السياحات ، وفي كشف المجاهيل . وسر عظمتهم كامن في انهم كانوا صريحين مع انفسهم ومع الاخرين ، لا يصدهم الباطل الذي شاهدوه ، عن قول الحقيقة حينما رأوا المجتمعات التي زاروها ، وطالعوا معالمها ، ودرسوا طبائعها واثارها . كما ان سر عظمتهم يبدو للباحث في انهم قصدوا غاية العلم . وجعلوا الرحلات وسيلة اليه . ولم يجعلوا المادة غرضا في أعمالهم العلمية والاكتشافية .

هذا في الماضي . اما الحاضر فلقد ظهرت طبقة من الادباء والعلماء والرحالة العرب في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . ساهموا في خلق النهضة الفكرية في الشرق العربي . وقد أورد لنا الاستاذ أنور الجندي في كتابه (اضواء على الادب العربي المعاصر) بعضا منهم واغفل البعض الآخر . ونخص منهم في حقل ريادة الاندلس كلا من :

١ - احمد زكي باشا شيخ العروبة - وكتابه (السفر الى المؤتمر) .
٢ - ادوار باشا الياس - وكتابه (مشاهد الممالك)
٣ - محمد كرد علي ، وكتابه (غرائب الغرب) .
٤ - امين الريحاني ، وكتابه (نور الاندلس) .
٥ - محمد لبيب البتنوني ، وكتابه (رحلة الاندلس) .
٦ - الامير شكيب ارسلان وكتابه (الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية) .
٧ - الاستاذ محمد عبد الله عنان . وكتابه (الاثار الاندلسية الباقية) .
٨ - الدكتور حسين مؤنس ، وكتابه (رحلة الاندلس) .
٩ - الاستاذ مصطفى فروخ ، وكتابه (رحلة الى بلاد المجد المفقود) .
١٠ - الاستاذ سامي الكيالي ، وكتابه (في الربوع الاندلسية) .
١١ - الدكتور صفاء خلوصي ، وكتابه (رحلة الى اسبانيا) .
١٢ - الاستاذة جاذبية صدقي ، وكتابها (رحلة الى اسبانيا)
١٣ - الاستاذ ناجي جواد ، وكتابه (رحلة الى الاندلس) .
١٤ - الاستاذ عماد الدين التكريتي ، وكتابه (اسبانيا موطن الاحلام) .

كما ان هناك بعض الرحلات التي نشرت في بعض المجلات العربية ، وفي الصحف السيارة ولم يجمعها اصحابها ، ومنها لا زال مخطوطا تركها اصحابها بعد ان ذهب بعضهم الى دار الخلود . ومن هذه الكوكبة التي ذكرها الاستاذ الفاضل انور الجندي اسماء معروفة في الاوساط الادبية ، ومنها لم يشر اليها في كتابه المفيد . ومنهم على سبيل المثال :

الشيخ محمد طاهر الجزائري والشيخ خليل الخالدي وكاتب هذه السطور .

ان الرحالة الرائد محمد لبيب بك البتنوني او البتانوني المصري ، اشار عنه المستشرق السوفيتي كراتشكوفسكي في كتابه الجليل (تاريخ الادب الجغرافي) ولم يتحدث عنه مفصلا ، لانه قد وقف في مؤلفه الى القرن الثامن عشر الميلادي . وقد قارن بينه وبين ابن الجيعان ٩٠٢ هـ ١٢٩٧ م صاحب الرحلة المسماة (القول المستظرف) التي وضعت في القرن الرابع عشر الميلادي ، وهو برفقة السلطان كرقانبياي ملك مصر في زيارته

للشام . والبتنوني قدم (الرحلة الحجازية) الى الخديوي عباس حلمي الثاني سنة ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م وصاحبه في زيارته للديار المقدسة .

والبتنوني قليل الحظ في الدراسات المعاصرة ، لان من الناس من ينالهم غنى الكتابة عنهم . ومنهم من يصيبهم فقر التعريف بهم . كما ان اصحاب التراجم كصاحب (الاعلام) و (معجم المؤلفين) و (مصادر الدراسة الادبية) ، لم يدرسوا شخصيته ، ولم يستطيعوا ان يؤرخوا ولادته . وقد تكون في حدود سنة ١٨٥٨ م اما وفاته فقد كانت سنة ١٩٣٨ وقد نعته مجلة (الرسالة) للاستاذ الزيات ومما قالته عنه في العدد ٢٤٩ – ١١ ابريل ١٩٣٨ س-٦ ص ٦٣٥ قولها :

« فقدت مصر .. عالما من خيرة علمائها ، ومؤلفا بحاثة من كبار المؤلفين فيها . ولقد عرف عن الفقيد خلال حياته الحافلة بجلائل الاعمال شغفه بالعلم والادب وتوفره على البحوث التاريخية التي كانت تزدان بها صور الصحف والمجلات لاكثر من ثلاثين سنة خلت .

ثم قالت المجلة في (بريدها الادبي) .. ذلك الى ما الفه من كتب الرحلات التي دلت فيها على طول باعه في الادب وسعة علمه بالتاريخ وقدرته على وصف عادات الامم وطبائعها » .

كان موظفا في الشؤون الزراعية ، وقضايا التربة ، ولديه بعض المال الذي يستعين به لقضاء الصيف خارج مصر كما اشار الى ذلك في رحلته الموسومة (رحلة الى امريكا) عام ١٩٢٧ .

اسلوبه : له اسلوب في الكتابة ، بسيط واضح ، وتتبع تاريخي جميل . ونشاط كتابي كثير يمد به الصحف والمجلات المصرية ، وخاصة (الاهرام) ، وجريدة (الموسوعات) : واغلب رحلاته كانت مذكرات وانطباعات يصورها بقلمه مصورة ويرسل بها الى كبريات صحافة بلاده . وهو مثقف واع ، بعيد عن الخيال الممزوج بالاساطير ، كاشفا للحقائق ، دون تهور واندفاع . صريح نحو قضايا التاريخ والاخبار التي لا يرتضيها العقل المدرك السليم . اضافة الى معرفته باللغة الفرنسية والتركية – وبعض الانكليزية .

آثاره : من آثاره المطبوعة في عالم الرحلات :

١ – رحلة الصيف في اوروبا ، عام ١٩٠٠ برفقة الخديوي عباس حلمي الثاني وعدد صفحاتها ٢٦٢ ص . وقد شملت مجموعة من بلدان اوروبا كدول البلقان ، والنمسا ، وفرنسة . وقد طبعت سنة ١٩٠١ .

٢ – الرحلة الحجازية ، عام ١٩٠٩ وهي بصحبة الخديوي عباس حلمي الثاني مزينة بالصور والخرائط في ٢٦٦ صفحة . لها قيمة تاريخية سياحية تحدث فيها عن مكة المكرمة – والمدينة المنورة . وقرظها الشيخان الجليلان الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الازهر يومذاك ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وقد طبعت عام ١٣٢٧ هـ ١٩٠٩ م .

واشار عنها وعن التي سبقتها المستشرق المعروف بروكلمن في « تاريخ الادب العربي » دون ان يتحدث عن رحلته الاندلسية .

٣ – الرحلة الى امريكا – وهي التي قام بها وحده صيف سنة ١٩٢٧ الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر التربة الزراعية المنعقد في واشنطن بشهر يوليو وكانت تنشر في (الاهرام) . جاءت في ٢٢٣ صفحة ذات خرائط ورسوم مصورة . وقد سجل فيها مشاهداته وانطباعاته وتكلم فيها عن الجالية العربية في المهجر الشمالي والجامعات والمكتبات . طبعت في القاهرة سنة ١٩٢٧ .

وهو كما يقول كان حريصا ان يشرك بني قومه في فائدة هذه الرحلات ، ويود صادقا ان يجد بلاده متقدمة في عالم التطور والمدنية والحضارة شأنها شأن ما رآه ووجده في العالم المتقدم . قال :

« لقد رأيت كما هي عادتي في رحلاتي ان اشرك بني قومي في مرئياتي ومشاهداتي ، وفي كل ما كتبت احس به من كمال في تلك البلاد ، ونقص في بلادي . رغم ما كان يصيبني من لعب ونصب ، في التحرير والتحبير والبحث والاستقصاء والترجمة . في وقت كان حقيقا بان ارتاح فيه من عناء السفر المطرد ليلا ونهارا في مسافة شهرين تقريبا » .

٤ – رحلة الاندلس : كانت الرحلة في بداية امرها رسائل متعددة ، اخذ يبعث بها صاحبها الى جريدة الاهرام بعنوان (جولة في اسبانيا) خلال الصيف . وجعل لكل رسالة مقدمة استطلاعية ، وختمها بكلمة (للعبرة والتاريخ) .

وقد بلغت الرسائل عشرا ، مزينة بالصور ومزدانة بالخريطة المشيرة الى اسبانيا ، والبرتغال . مع ملحق ببعض الاعلام العربية الاسبانية ، وجاءت الرحلة الاندلسية في ١٦٧ صفحة ، وهذا ملخص محتويات الرحلة استعرضه الان للفائدة والاطلاع .

١ – كلمة (تمهيد) – وبها آراء ونقدات صائبة عن تاريخ العرب في الاندلس – وفي لوم بعض المؤرخين الذين درسوا تاريخ وجود العرب فيها ، وقد سلط الاضواء على ما جاء في (نفح الطيب) للمقري وما ورد فيه من اساطير وحكايات .

٢ – الرسالة الاولى : وتشمل بداية السفر من فرنسة الى اسبانيا عن طريق حدود اسبانيا الشمالية الغربية في بداية شهر اغسطس سنة ١٩٢٦ . وفيها حديث عن مدينة (سباستيان) ومصارعة الثيران في اسبانيا .

٢ – الرسالة الثانية : دخوله الى مدريد العاصمة وتسميتها عند العرب باسم (مجريط) او (مشريط) . وعن دير الاسكوريال وزواج العرب بالاسبانيات وتأثير ذلك في سياستهم وحياتهم . وعن الحياة الادبية والشعرية والعلمية في اوساط الاندلس .

٣ – الرسالة الثالثة : من مدريد الى قرطبة وفيها وصف المسجد الجامع العظيم فيها وروعته وسحره .

٤ ــ الرسالة الرابعة : من قرطبة الى اشبيلية وفيها يتحدث عن آثار بني عباد وقصورهم باشبيلية . ومنارة الخيرالده .

٥ ــ الرسالة الخامسة : من اشبيلية الى غرناطه وبها حديث عن غرناطة وتاريخها وقصورها . وخاصة قصر الحمراء وجنة العريف .

٦ ــ الرسالة السادسة : دخول العرب اسبانيا وكيفية الفتح واسماء ابرز قواده .

٧ ــ الرسالة السابعة : الاندلس ، ومدة حكم الامويين فيها ، وعظمة سلطانهم .

٨ ــ الرسالة الثامنة : سبب تفرق كلمة العرب في اسبانيا وضعفهم امام هجوم الاسبان .

٩ ــ الرسالة التاسعة : بعد تسليم غرناطه ، وما آلت اليه حالة المسلمين هناك .

١٠ ــ الرسالة العاشرة : من غرناطه الى برشلونه . وبها حديث ممتع عن برشلونه وطبيعتها وموقعها ، وجمالها ، وصناعاتها وتقدمها المدني والعمراني والثقافي .

والكاتب كان قد رغب في زيارة بلنسية ، ولكن حرها الذي سمع به ، والذي يفوق حر الاندلس الجنوبية منعه عن زيارتها ، وفضل العودة لوطنه بعد ان سجل لنا مظاهر الحياة الاندلسية والاسبانية بطريقة علمية ، متزنة ، بعيدة عن العواطف الملتهبة ، والخيال الجامح الكثير . وهو في كل فصل ، ونهاية كل رسالة يقارن بين الماضي والحاضر ، ويستعرض بعض القضايا الاندلسية ، ويحلل شؤونها ، ويربط بينها وبين ماضيها وواقعها اليوم ، دون ان يذهب به الامر بعيداً خارج نطاق الحقيقة الصادقة .

ان من ابرز (رحلة الاندلس) للمرحوم الاستاذ محمد لبيب بك البتنوني : هي انها واضحة الصورة ، بارزة الفكرة ، قصيرة الزمن ، وقد حلل فيها الشعب الاسباني وحياته ، ونفسيته ، تحليلا واقعيا ، واشار الى ان هناك بعض الفروق بين الاندلس العربية بالماضي ، والاندلس الاسبانية اليوم .

اما المآخذ على رحلته ، فانه قد جعل دخول العرب الى اسبانيا في الرسالة السادسة . وكان الافضل ان تكون من اولى رسائله ، حتى تتم جوانب الصورة التي رسمها ، وتتكامل خطوطها الهندسية ، ويتقبلها الاسلوب العلمي المنطقي .

ونراه احيانا يسرح مع الخيال ، ويسير مع قضايا التاريخ التي سجلها المؤرخون القدامى . دون ان يترك المجال لقلمه بان يتحدث عن واقع ما رآه وسمعه واحس به .

اما مصادره ومراجعه في هذه الرحلة فانه اعتمد على ثقافته وشخصيته المتمرسة في عالم الرحلات ، والاتصال بالشعوب وبلدانها .. ومن الكتب القديمة التي نهل منها كتاب موسوعة (نفح الطيب) للمقري المتوفي ١٠٤١ هـ . وتاريخ ابن خلدون ومقدمته الرائعة . وبعض مؤلفات المؤرخ الاندلسي المعاصر الاستاذ محمد عبد الله عنان وآثار الاستاذ المجمعي محمد كرد علي .

نموذج من كتابته في رحلته قال ، في (تمهيد) :

« وهنا يقف القلم باهتا حائرا خجلا من ان يرى لبعض مؤرخي العرب بعض الآثار التي تتصل بالتاريخ القديم لاسبانيا اقوالا لا تنطبق على عقل ولا فكر بل هي اساطير اعتادها بعضهم عندما يريد ان يتكلم على شتى تتغلغل تاريخه في بطن الماضي البعيد .

وقال : ولا بد ان يكونوا قد اخذوا هذه الاساطير عن سكان البلاد بعد فتحهم لها ، وتاريخ الاسبان انفسهم مشحون بكثير من امثال هذه الخرافات . ولكون العرب امناء على النقل لم يشاءوا ان يحكموا عقولهم فيها ولا في غيرها من هذا القبيل ، لذلك نرى تاريخهم انفسهم قبل الاسلام سقيما عليلا فيه كثير من الاساطير التي تنعدم حقيقة التاريخ بين سطورها . وربما نرى هذه الامانة نفسها في ايامنا هذه حتى في الازهر الشريف فانك تجد اهله يحترمون غلطات المؤلفين ومع اعتقادهم انها اغلاط فانهم لا يزالون يتركونها لهم في كتبهم ولا يريدون ان يصلحوها احتفاظا بامانتهم في النقل » .

والكاتب كما هو ظاهر يتكلم اللغة الفرنسية ، وهي واسطته في التعارف والحديث ، في اوروبا . غير انه يرى من الضروري للعالم وجود لغة اخرى عالمية تكون بمثابة القاسم المشترك الاعظم بين سكان الدنيا للتخاطب ، واشار الى وجود لغة الاسبرانتو ووضع اصول لغتها في العالم الاوروبي .

ثم عاد بعد ذلك فقال « على انه لا حاجة لكل هذه المتاعب في خلق لغة جديدة . وحسب الناس الاتفاق على لغة من اللغات الكثيرة الانتشار في العالم لتكون هي اللغة الثانية لكل امة » .

والبتنوني ــ رحمه الله ــ ذو ذوق ادبي في اختيار الشواهد الشعرية الاندلسية ، حيث يختار منها ما يناسب السياق . ويعتبر من رواد الاندلس الذين نفعوا تاريخ الاندلس القديم ، بكشف بعض معطياته النافعة . كما انه من اصحاب القلم السيال والمرونة الصحفية ، التي لم تجعله كثير الحشو كغيره ، او تزلف قلمه الى مهاوي الحكم السريع ، والرأي الفج السقيم .

طيب الله تربة البتنوني وغفر لقومه من ابناء العروبة ، الذين اغفلوا الكثير من ابنائهم في عالمي الحياة ، وبعد الممات . ولم يتكرموا عليه بكلمة عطرة ، ولا بذكرى عابرة ، تبعث التشجيع في نفوس السائرين على دربهم والمتتبعين خطى اعمالهم . الغارقين في لذة المعرفة ، والحالمين بامجاد الخلود : والصابرين على آلام الحياة ، ومنغصات الوجود .

والى الدراسة القابلة عن رائد آخر من رواد الاندلس الطيبين .

بغداد ــ كلية الاداب — محسن جمال الدين



عبد الغني شعبان

الموسيقار عبد الغني شعبان

بقلم الشيخ طه الولي

***

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » صدق الله العظيم .

وان عبد الغني شعبان كان واحدا من بين هؤلاء الرجال الذين خصهم الله عز وجل بآية في كتابه الكريم، ذلك انه رحمه الله ، جعل بينه وبين ربه ميثاقا مبرما بان تكون حياته كلها وقفا على البر بأمتــه العربية ، والاخلاص لرسالته الفنية وان يجود بذات نفسه عن الفناء من أجل سؤدد وطنه وسعادة مواطنيه . وان هذا الميثاق كان يعايشه ملء برديه وبين جنبيه اين ما كان وكيف ما كان آناء الليل في سهره واطراف النهار خلال عمله . وهو موصول الفكر به اذا فتح عينيه عند انبلاج الصباح ويبقى كذلك الى ان يغمضهما للراحة في النوم عندما يدلهم دجى الليل في المساء .

اذا تحدث فان كلامه لا يتجاوز موضوع هذا الميثاق ومتى سكت فان هذا الموضوع يكون هاجسه في تأمله وانطلاق خياله . ولست اذكر اني جلست اليه يوما الا وكان حواره معي كلمات حرى عن امته التي اقلقه حالها اليوم وشغله مصيرها في الغد . وكانت كل جارحة في جسمه تشارك لسانه في التعبير عن حرصه على شد هذه الامة الى تراثها العريق في ركب الحضارة الانسانية لكي تعود الى مكانتها الطبيعية في دورة الزمن والتاريخ على صهوات المجد والخلود .

وعندما دهمه الداء الذي اسلمه الى ريب المنون لم تصرفه هموم صحته وتباريح آلامه عن التفكير بما اخذ نفسه به من العمل المتواصل لاجل امته ووطنه ودينه . ومن فوق فراش المرض كان يبادل عائديه من اهلــه واخوانه الراي فيما يضطرب به ذهنــه من الاحاسيس والاماني بما يمكنه ان يصل الى غايته بهذا العمل على النحو الذي يرضي ضميره ويحقق طموحه حتى تكــون الامة في المستوى الحضاري الذي يعيد اليها زمام المبادرة من جديد في قيادة العالم عبر دروب التقدم والتطـور والازدهار !..

« أني احب ان اعيش لا طمعا بالحياة فان لكل اجل كتاب ، بل رغبة في اداء واجبي كاملا نحو امتي وديني ووطني ، ولست اخاف من الموت الذي هو الحق المنتظر لكل بني البشر ، فكل نفس ذائقة الموت ، ولكني اخشى ان تنتهي ايامي وتأزف ساعة الرحيل عن هذه الدنيا قبل ان استوفي املي كاملا باعطاء الناس جميع ما يخفق في صدري من المحبة لهم والوفاء برسالتي من اجــل كرامتهم وسعادتهم » هذه الكلمات التي لهج بها عبد الغني شعبان على مسمعي وهو يتقلب على جمرات الغضى تحت وطأة دائه كانت تترجم نبضات قلبه عبر صــدى صوته قبل ان يرزح هذا القلب الكبير تحت كلكل العياء القاتل ويتوقف عن الخفقان لآخر مرة بعد ساعات قليلة ويضع الموت حدا نهائيا لرحلة فقيدنا الغالي مع ابناء الحياة .

ان هذه الكلمات صدرت عن عبد الغني شعبان وهي ترسل في كل حرف من حروفها وهجا منيرا مــن شعاع رسالته ؛ وقد رددها في لحظات متلاحقة اكثر من مرة ، كانه كان يدرك انه على موعد مع القدر على ساعة الفراق الابدي ، فاراد ان يكتب وصيته الاخيرة قبل حلول هذا الموعد لتكون هذه الوصيــة نبراسا يضيء الطريق لمن يتصدى لحمل الرسالة من بعده !..

وعندما اصغيت اليه وهو يردد هذه الكلمات بصوته المتهدج المنهوك : ساورني شعور غامر ان ابا محمد بلغ من العمر نهاية مطافه ، ولم يعد يفصل بينه وبين لحظاته الاخيرة سوى فترة وجيزة ؛ ثم يكون الوداع الذي لا لقاء بعده الا يوم البعث والنشور ؛ بين يدي خالق الحيـاة والموت ، فلم اتمالك نفسي من مغالبة دموع الفراق وهي تترقرق في عيني ، وتمتمت في سري : واحزني عليــك ايها الاخ الكريم .. انا لله وانا اليه راجعون ولا حـول ولا قوة الا بالله العلي العظيم !..

اجل انه لا بد مما ليس منه بد ، فلقد ازفت ساعة

الرحيل لعبد الغني شعبان واخذ صدره يضيق بانفاسه المعدودة وما ان انبلج صباح اليوم التالي من حم القضاء الصادع وغاب ضياء الحياة عن محيا هذا الانسان الذي طالما تألقت قسماته باشراقة الانس والوداعة على الشاشة الفضية وهو يقدم لمشاهديه ومحبيه في ندوة الفن احكامه الموزونة على مستوى الطامحين لدخول عالم الطرب والموسيقى والحان الغناء .

وهنا لا بد لنا من القول بانه عندما كان التلفزيون يعرض على شاشته الفضية تلك المجموعات الغضة من اولئك الطامحين الناشئين ، فان المشاهدين من هواة الاستعراضات الموسيقية والغنائية كانوا يلصقون ابصارهم على الشاشة ويرهفون اسماعهم لكي يتعرفوا على وجه عبد الغني شعبان ويسمعوا صوته وهو يدلي برايه فيما يعرض امامهم ، ذلك انهم يثقون بعدالة حكمه القائم على المعرفة العلمية ، والتجرد عن الهوى ، والبراءة من العقد النفسية والترفع عن التعسف المذهبي والعصبية الاقليمية ، ومن فم عبد الغني شعبان ، كان المشاهدون والعارضون معا يتعلمون دقائق الفنون الموسيقية وهو يحلل لهم باسلوبه الجذاب وبيانه المبسط القواعد والاصول التي ينسجم معها الصوت الرخيم ويقيم بها اللحن السليم ويتكامل الايقاع المتناسق الخالي من النشاز والتنافر ويرتاح اليها الذوق الرفيع . واني اكاد لا ابالغ اذا قلت بانه كان لعبد الغني شعبان وحده القول الفصل القائم على التحليل والتعليل والتفصيل الذي كان يطمئن اليه الجميع سواء في ذلك الذين يشتركون في تقديم الندوة الفنية او الذين يشاهدونها .

على ان عبد الغني شعبان لم يكتف من دنيا الفن بالدور الذي ينتهي عند حدود شاشة التلفزيون ، بين العرض والمشاهدة ، اذ ان هذا الفنان الاصيل كان يمارس صنعة الفن من موسيقى وتلحين وتاليف منطلقا من ايمانه الوثيق بان هذه الصنعة ليست حرفة تجارية يستعين بها الانسان على التكسب المادي لتأمين معيشته اليومية واكتناز ثروته المالية ، ولا هواية مترفة يتوسل بها المرء لابراز مواهبه الشخصية ؛ ولا ضربا من الوان التسلية العابرة يزجي بها الكادح اوقات راحته او ساعات فراغه ، وانما هي رسالة انسانية هادفة يتطال اليها اصحاب المثل العليا لتحقيق ما يختلج في نفوسهم من مطامح السمو بالامة التي انجبتهم لكي يبرزوا شخصيتها الحضارية ويؤكدوا ملامحها القومية حتى تقف على قدم المساواة مع نظائرها من سائر الامم الناهضة والشعوب المتقدمة .

وبهذا المفهوم الواعي فان عبد الغني شعبان كان يلتحم في عروة وثقى من التلازم المصيري مع مبدأ « الفن من اجل الامة والدين والوطن » ومن خلال هذا التلازم ومعطياته العقلانية ؛ فانه عطر الله ثراه بالرحمة والرضوان لم ينجرف مع القول الشائع « الفن من اجل الفن » هذا الشعار المتهافت الذي تلوكه السنة المحترفين الذين يضربون على الالات الموسيقية او يرطنون بما تفرزه حناجرهم من زعيق منكر في الحان ملفقة جمعوا انغامها كحاطب الليل الذي يلتمس من كل واد عصا .

لقد قال احمد شوقي بك امير الشعراء في بيان معنى الشعر واثره في التوجيه الاجتماعي والدعوة الى مكارم الاخلاق :

والشعر ان لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة فهو ترديد واوزان

ولست أرى الا ان الشعر والفن وجهان متقابلان لمعدن واحد . فهما يسيران بالانسان في خطين متوازيين ، على انهما كلاهما ينبعان من معين واحد ويلتقيان في النهاية عند نفس الغاية الاجتماعية والخلقية ، وهما الجناحان اللذان ترتفع بهما اخيلة العباقرة والموهوبين لوصل تليد الامة بطريفها واثارة عزائم المواطنين للنهوض بالوطن وتأثيل مجده وسؤدده . ولعمري ، ان لم يكن الفن توأما للشعر في هذا المعنى فهو لن يكون اكثر من ضجيج الالات المعدنية وصخب الاصوات البهيمية المسخرة لاستثارة الغرائز الحيوانية الوضيعة في الانسان المتخلف .

هكذا كان عبد الغني شعبان في نظرته الى الفن ، ومن خلال هذه النظرة الخلاقة والتصور الايجابي البناء كان يلتزم مع نفسه كلما امسك بالقلم وشرع في تاليف معزوفة موسيقية او تلحين مقطوعة غنائية . كان يندمج بفكره وقلبه مع الفنون الموسيقية الى درجة الفناء المطلق بحيث استحال هو بالذات معزوفة متكاملة بين حسه وجسمه حتى اصبحت حياته كلها هبة من العطاء والجود لهذه الفنون من غير حد لتفاعله بها واخلاصه لها . فاذا تحدث كانت الموسيقى موضوع كلامه . واذا فكر كانت الموسيقى هاجس فكره ، واذا تأمل كانت الموسيقى مسرح خياله ورؤى بصيرته وخلجات شعوره . فلقد كان هذا الفن ياخذ عليه مجامع وجوده وكيانه يلازمه اثناء شواغله اليومية في مقر عمله ومع وساوسه لتأمين ضرورات معاشه واعباء عائلته واذا آوى الى فراشه للاستراحة من عناء السعي وراء رزقه كان هذا الفن رفيق احلامه في اغفاءة النوم الهنيء وهو بهذا الشعور كان يمارس التاليف الموسيقي .

وما اكثر ما رايته وهو معتكف على نفسه في ركن بيته والى جانبه عائلته واولاده ومعهم خلطاؤه من رواد مجلسه واصدقائه ، مقبلا على اوراقه يجوس خلالها بيراعه وريشته منهمكا في تاليف قطعة موسيقية تستمد انغامها والحانها وايقاعها من المفاهيم الانسانية والمبادىء

الوطنية التي آمن بها واخذ نفسه بالدفاع عنها والدعوة اليها ولم يكن رحمه الله . وهو مكب على عمله هذا يعنى بما يجري حوله من صخب الاولاد او ضجيج الزوار ولا غير ذلك من شؤون الناس وشجونهم . حتى اذا ما وصل الى غايته من الكتابة والتاليف رفع راسه وانفرجت اسارير وجهه واقبل على من حوله وهو يقول بجذل الذي يعثر على ضالته المنشودة بعد ضياعها « لقد وجدتها لقد وجدتها » ودون ان ينتظر الجواب يندفع بلا تكلف ولا اصطناع الى شدو ما كتب تشاركه في الشدو والترديد جميع جوارحه واعضاء جسمه ونبضات فؤاده وخلجات شعوره ولفتات ذهنه . ولا بدع فان هذا الفنان المطبوع، كان يضع كل ما وهبه واحب الوجود من وجود عبقريته الفنية من اجل خدمة الرسالة التي كانت في الواقع جزءا لا يتجزأ من عقله وقلبه وعاطفته .. وهي رسالة التراث العربي المجيد في امتداده الحضاري الخالد !..

نعم ، ان فقيدنا الذي لا يعوض كان يعتقد بما لا يقبل النقاش ولا الشك بان الفنان العربي يجب ان يكون له نفس الدور القومي في الحفاظ على هذا التراث ورد غائلة الغارة الاجنبية والاحقاد الشعوبية عن حماه الى جانب العالم والمؤرخ والاديب وشاكي السلاح ، كل في الجبهة التي هو فيها من ساحة النضال والكفاح انه كان يعتقد بان اصحاب المواهب الفنية من موسيقيين وملحنين ومغنين عليهم ان ياخذوا مكانهم الفعال جنبا الى جنب مع اهل القلم من المفكرين والمثقفين ومع حماة الديار من المقاتلين على الحدود للمشاركة في شرف ايقاظ الوعي القومي والذود عن الوطن واشاعة رسالة الايمان بالحق والخير والجمال وكرامة الانسان وعيشه بحرية وسعادة وامن وسلام .

وباسلوب العالم المحقق المتمكن من ثقافته الفنية راح عبد الغني شعبان يعطي الدليل يتلود الدليل على ان دهاقين الموسيقى من الاجانب كانت روائعهم الفنية عالة على القواعد التي وضعها رواد الموسيقى العرب (؟!!) وهنا في بيروت : وكذلك في سائر الحواضر والمجامع في البلاد العربية والاقطار الغربية كانت له صولات وجولات في سبيل تاكيد المقام الاول للفنون الموسيقية التي كان لاجدادنا العرب فضل ارسائها على الاسس التي امست اصولا ثابتة للمبادرات الموسيقية بين الامس واليوم (؟!!)

رحم الله ابا محمد : صناجة العرب في هذا الجيل.
رحم الله هذا الفنان الرائد لابناء هذا الجيل . فانه كان من النماذج البشرية التي يجد فيها التواقون الى التسامي على غرور الحياة الدنيا وزخرفها الباطل صورة نقية من شوائب الانتهازية والوصولية . فلقد كانت تتجسد في شخصه المعاني التي يرنون باشواقهم اليها فيزدادون يقينا بانه ما يزال للقيم الاخلاقية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وجعلوا حياتهم وقفا على هذه القيم دون ان تطرف عيونهم مزالق العيش الرخيص على حساب مبادئهم . وكانت كرامتهم وعفة نفوسهم في السر والعلانية القسطاس المستقيم الذي يزنون به روابطهم الفكرية بينهم وبين الناس ورب الناس . فلقد كان ابو محمد علما مفردا من هؤلاء الرجال ، والى شخصه كانت الايدي تمتد بالاشارة كلما احتفلت الالسن بالحديث عن رجل تكمن في هامته العزة والمثالية وتتمثل في مواقفه الجراة بقوله الحق مهما غلا مهره واربدت عواقبه .

وخلال الخمسين عاما التي انطوى على ايامها عمره الخصيب ما حدثته نفسه بان يلهث بالجري وراء الشهرة الزائفة على بساط من ريح الاعلام المأجور والدعاية الكاذبة ، ولا راوده الطمع بان يقيم مجده الفني على سراب من شهوة الوصول الرخيص عن طريق الملق بين يدي تجار الوجاهة في المواسم العارضة او الزلفى لاصحاب النفوذ والسلطان من اهل المناصب الزائلة بل ان تلك النفس الابية التي رافقها صاحبها على كبرياء الثقة وعنفوان الشرف كانت تشده دائما وابدا الى ارتقاء معارج المجد من خلال كفاءته الذاتية التي ملك ناصيتها عن جدارة واستحقاق بالعمل والصبر ، واصلا نهاره بليله معتمدا على عرق جبينه وكد يمينه منذ ان بدأ نشاته الاولى دهانا للسيارات في دكونة متواضعة الى ان استوى شامخا على سدة الفن الموسيقي نجما ساطعا يتألق بالنجاح في الخافقين بين شرق الدنيا وغربها وتشرئب اليه انظار الالوف من مواطنيه واصدقائه الاجانب ، ويا ليت شعري .. ان لم تكن سيرته هي العصامية الفذة بعينها ، فكيف اذن تكون العصامية ؟

...

اما بعد ، وقد استردت العناية الالهية منا وديعتها وغاب عنا عبد الغني شعبان وراء ضباب الابدية بجسمه تاركا فينا هذه المعاني الاثيرة التي ما تزال تعيش فينا مع اسمه وذكراه . فهل ترانا اليوم قدمناه بما يليق به من وفاء لحقه علينا عبر هذه الكلمات التي كتبناها عنه في هذه العجالة ؟

اننا نسارع الى الاجابة على هذا السؤال ونبادر الى القول بكلمة «لا» ذلك ان هذا الكنز الفني الذي طواه الثرى في احشاء الارض كان بالنسبة لنا ثروة لا تقدر بثمن مهما كان غاليا والكلمات مهما طالت وتوالت فانها تبقى قاصرة عن الوفاء بهذا الحق علينا وعلى الاجيال العربية ما سلف منها وما هو آت ؛ بيد ان عزاءنا بابي محمد ان التاريخ المنصف سيفيه حتما حقه بالخلود .. وان عبد الغني شعبان هو اليوم ، وفي كل يوم في عليين مع الخالدين .

بيروت . طه الولي



رشيد الذوادي

الشاعر التونسي سعيد ابو بكر

١٨٩٩ – ١٩٤٨

بقلم رشيد الذوادي

***

لقد اجتمعت عوامل كثيرة على تكوين شخصيته وابراز مؤهلاته الشعرية ، فهو دقيق الشعور وذو حافظة عجيبة وخيال فسيح وحس مرهف .

انه اخذ عن كل شاعر افضل ما عنده فاعجب باشعار المتنبي وابي تمام ، وراقته موسيقى البحتري وافتتن بصفاء خيال ابي نواس ، وقد كان من اولئك الذين يتهافتون على قراءة كل ما يتصلون به من انتاج ادباء المشرق ، فاطلع على اشعار كل من احمد شوقي : (١٨٦٨ – ١٩٣٢) وحافظ ابراهيم (١٨٧١ – ١٩٣٢) وخليل مطران (١٨٧٠ – ١٩٤٩) ، وشكيب ارسلان (١٨٧٠ – ١٩٤٦) واسماعيل صبري (١٨٥٤ – ١٩٢٣) وجميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ – ١٩٣٦) ومعروف الرصافي (١٨٧٥ – ١٩٤٥) وغير هؤلاء من شعراء الشرق وادبائه (١) وكان يحب الفن والموسيقى ، ومغرما بالمزاح والتنكيت يقول الشعر في كل مكان وينظمه في كل وقت ولا يضايقك بتلاوته او بالاطلاع عليه ..

انه احد ادبائنا الكبار الذين ساهموا مساهمة جدية في انارة الراي العام التونسي . ودفعوا به نحو ساحات النضال والاستشهاد ، وعبروا عما يعتمل في النفوس من خلجات وافكار في وقت عمه النفاق والرعب وامتلا بالرجعيين والمنزلفين .

اجل انه احد اعلام الادب التونسي . ومن جهابذة نهضتنا الادبية الحديثة . ورائد من روادها وشاعر الشعب بلا منازع .. تالق نجمه في سماء الادب منذ سنة ١٩٢٠ اي منذ العهد الاول لنهضتنا الفكرية فاثرى بشعره ادبنا المعاصر ؛ والهب بمقالاته وكتاباته المهج والنفوس في احلك فترات تاريخنا ضد المستعمر الاجنبي البغيض ، وعالج مشاكلنا الاجتماعية ، وحرك العزائم والهمم ودفع بالشعب الى النهضة ؛ والتحرر والثورة ؛ وهو بفضل هذه الميزات يعد من مشاهير ادباء تونس في النصف الاول من القرن العشرين عامة وفي ثلثه الاول خاصة وممن اسهموا بقسط وافر في جعل ادبنا يتجه نحو الميادين الاجتماعية والوطنية والانسانية بوجه عام.

عصره : عاش سعيد ابو بكر بين عامي ١٨٩٩ – و١٩٤٨ وهذه الفترة كانت هامة جدا من الناحية السياسية والثقافية ، فقد عرفت فيها بلادنا احداثا تاريخية هامة كواقعة « الزلاج » عام ١٩١١ ، وحادثة « الترام » عام ١٩١٢ ، وثورة ابن عسكر ضد طغيان السلطة الفرنسية سنة ١٩١٥ ، ثم تاسيس الحزب الدستوري وبروز نزعة وطنية ووعي ثقافي اصيل وخاصة من الشباب المثقف في ذلك العهد الذي استوعبته جمعيتا قدماء الصادقية والخلدونية عقب تاسيسهما وايضا ظهور نواة الحركة النقابية القومية عام ١٩٢٤ على يد الدكتور محمد علي بن المختار المحامي (١٨٩٤ – ١٩٢٨).

كما عاش فترة بعث جريدة « صوت التونسي » عام ١٩٢٩ ، وانعقاد المؤتمر الافخاريستي المنعقد « بقرطاجنة » فيما بين ٧ و١١ ماي ١٩٣٠ ، وحوادث التجنيس التي سيطرت على الميدان السياسي في سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٣ ، والاضرابات الزيتونية قصد اصلاح التعليم ، وانبعاث الحزب الدستوري الجديد في الثاني من مارس ١٩٣٤ .

وشاهد بعينيه اعتصابات الجوع ، والتنكيل بالوطنيين ، وقسوة المستبد ، وظهور الكثير من الصحف والادباء والمثقفين الذين تعززت بهم الحركة الوطنية وخطوا بها اشواطا بعيدة .

انه عاش في هذا الجو الثقافي والسياسي والاجتماعي وقد وجهت مظاهر هذه الفترة التاريخية الحاسمة حياته وانتاجه كما سنرى ذلك فيما بعد .

حياة حافلة : وسعيد ابو بكر من مواليد المكنين في ٢٨–١٠–١٨٩٩ ولقد اتفق كل من الاديب : زين العابدين السنوسي صاحب كتاب « الادب التونسي » في القرن الرابع عشر والاستاذ راجح ابراهيم الفيلسوف والمحامي بسوسه سابقا والذي قدم لسعيد ديوانه « السعديات » الصادر عام ١٩٢٧ : اتفقا على أن اديبنا تتلمذ في احدى المدارس القرآنية بالمكنين ثم في احدى

---

(١) ديوان السعديات ص ١١ و١٢ .

المدارس الحكومية بها ثم التحق بسوسه ليواصل تعليمه الثانوي لكن تعذر عليه ذلك لضعف امكانياته المادية. فاضطر الى العمل ككاتب عند بعض المحامين واخيرا قيض اليه الاستاذ راجح ابراهيم فاخذه الى مكتبه وامده بكل ما كان يصله من انتاج أدباء المهجر والشرق وقد ساعده هذا الجو الثقافي المنعش على استكمال ثقافته العربية ، نظهرت بوادر نضجه ، وتفتقت شاعريته فتهافتت على مقطوعاته الشعرية مجلة « النديم » التونسية حيث نشر نيها عدة مقطوعات تحت عنوان « زهرة بعد زهرة » (٢) جمعها فيما بعد في ديوانه الصغير « الزهرات » .

ولم يقتصر نشاطه في هذه الفترة على مراسلة « النديم » فحسب ، اذ راسل « الصواب » و « الوزير » وغيرهما من صحافة ذلك العهد .

وبفضل هذا النشاط المتزايد تالق نجم ادبه ، وعلا صيته ، وتلقفت صحافة البلاد ومجلاتها وتقاويمها قصائده ومقالاته وقصصه ذات الاغراض الاجتماعية الهادفة .

تمر الايام ويرى الناس سعيدا يكتب في جريدة « لسان الشعب » بعض المقالات النقدية الهادفة تحت عنوان من « النافذة » (٣) ثم يرونه يتردد على نادي الحزب بنهج « انكلترا » بتونس ويصبح مع عام ١٩٢٧ علما من اعلام النهضة الادبية في تونس وشاعرها الاجتماعي الصداح رغم ما كان يعتري بعض انتاجه من نقص واغلاط في اللغة حسبما يذكر المؤرخ زين العابدين السنوسي في مقال له « بالندوة » عدد ٥ ماي ١٩٥٣ ص ١٤ اذ يقول عنه في هذه الفترة بالذات : « .. مع كل ذلك فقد بقي صاحبنا سعيد يتبعه نقص اصلي في حرفته الكتابية من حيث اغلاطه النحوية والصرفية والرسم تجعله عرضة للاحظات صاحب المكتب ، تلك اللاحظات التي لم تعد تتلاءم مع ما يلقاه من اكبار العموم ومع انه كان يعرف ان ناشري ادبه يهذبون من هفواته تلك، فقد كان الاغراء عظيما على نفسه ان يستقل عن رؤسائه المحامين وعن اصحاب تلك « التقاويم » و « المجلات » و « الجرائد » التي تستثمر جهوده وتتمتع بنتائج ادبه بينما اصحابها يعاملونه معاملة القاصر وما زالوا يهذبون ويشذبون من اقواله التي تتلقفها الاذان والافواه » .

وتعلقت همته باصدار مجلة يشرف عليها بنفسه فتقدم في هذا الشان بطلب الى السلطة فرفض مطلبه ، فالتجا الى الحيلة وتسوغ تحت طي الخفاء امتياز مجلة « العالم » من صاحبها لمدة ثلاث سنوات واصدر العدد الاول منها في يناير ١٩٢١ لكن صاحب المجلة فسخ العقد بعد عام ونصف وسوغها لغيره فاضطر الى كشفه والى تقديم قضية عدلية به .

وبعد توقف هذه المجلة عمل كمراسل لجريدة « النهضة » اليومية وفيها حرر سلسلة من الفصول عن « مؤتمر البعث » بقصر هلال وقد اعاد طبع هذه الفصول في كتيب نشره سنة ١٩٣٦ .

وتاتي سنة ١٩٣٧ فتتحقق رغبته القديمة ويصدر مجلته الشهرية « تونس المصورة » بعد صدور اوامر اوت ١٩٣٦ التي سمحت للتونسيين ببعض الحريات النسبية ومنها حق اصدار الصحف وقد استمر صدور هذه المجلة الى نوفمبر ١٩٤٢ ، اذ توقفت بسبب الاحتلال الالماني ثم استانفت نشاطها من جديد في عام ١٩٤٥ الى آخر يوم في حياة سعيد ابي بكر المتوفي في ٢٩ ينساير ١٩٤٨ بمدينة تونس .

والملاحظ انه في فترتي صدور « تونس المصورة » يختفي اسمه من التقاويم والمجلات والصحف اذ انشغل « بالتمويلات » التي تحتاجها مجلته ، ولم يعد له من الوقت ما يستطيع به ان يراجع حتى بعض المقطوعات القديمة قبل بروزها للنشر ولاجل هذا كان اغلب ما نشره من اشعار بعد اصداره لمجلته قد جاء ضعيفا وخاليا من المقومات الفنية كقوله في مقطوعة : «يستعذبون التكلف» :

يقولون لي: ماذا صنعت؟ وماللذي ... تريد لنا بالشعر ؟ مهلا ! اما كفى
فما الشعر الا ما نـراه معجبا ... يخر له دقـن العليم منتفعا
نعم ! الامن شعري البسيط ولهاكن ... ارى انهم يستعذبون «التكلفا (٤)

وهكذا كانت حياة هذا الاديب العصامي .. آنها صورة من مجتمعه المضطرب .. فقد عانى التنكيل والسخرية والتمزق ، وعرف الشدائد والخطوب وقاسى ما قاساه غيره من ابناء هذا الجيل قصد رفع المظلمة والسير بالامة نحو الانعتاق والسؤدد .

مؤلفات سعيد ابي بكر : يعد سعيد ابو بكر من ابرز كتاب تونس المرموقين في هذا القرن ، فلقد سخر قلمه وفكره من اجل تونس والرفع من شانها في ميادين الفن والفكر والثقافة فالى جانب اهتمامه بالعزف على « الكامنجة » (٥) فانه قد ترك لنا مؤلفات هامة وذات اهمية بالغة ونستطيع ان نحصي هذه الاثار فيما يلي :

الجزء الاول من « السعديات » ويقع في ١١٠ صفحات ، ويقول سعيد في مفتتح هذا الديوان « انـي اتقدم اليوم بالجزء الاول من ديواني الى ابناء البلاد وابناء الشرق وانا حاسب اني قد بذلت قصارى مجهوداتي في ترضيتهم وفي تقديم كل شيء نفيس عندي .

ولقد رايت من الاحسن ان اقدمه الى القراء من

---

(٢) راجع مجلة (الندوة) التونسية عدد ٥ ماي ١٩٥٢ ص ١٤ فصل لزين العابدين السنوسي بعنوان « من ضحايا النبوغ الباكر ».

(٣) الادب التونسي في القرن الرابع عشر : لزين العابدين السنوسي ، المجلد الاول ص ١٠٢ ط تونس ١٩٢٧ م .

(٤) « الزهرات » : ص ٦٢ ط تونس عام ١٩٢٠ .

(٥) مجلة « الندوة » التونسية عدد ٥ ماي ١٩٥٢ ص ١٥ .

غير تبويب خاص. لما جاءت به الدواوين التي جرت عادة أصحابها ان يبوبوها حسب حروف الهجاء . او حسب ابواب الشعر . أو حسب تاريخ الحوادث . اما انا فقد جعلته شبه كشكول لاني لم انظم شيئا في كثير من الابواب التي اعتاد الشعراء ان ينظموا فيها مثل المديح ، والهجاء ، والفخر ، والرثاء ، والغزل ، وغير ذلك ، بل ان جميع قصائدي يمكن ان تكون في باب واحد ليس إلا .

هذا وقد ابقيت القصائد التاريخية المشتملة على تفصيل حوادث دخلت في التاريخ سواء مما وقفت عليه في الكتب ، او مما حضرت عليه بنفسي ، وقد عولت على اثباتها في الجزء الثاني من « السعديات » التي ساشرع في طبعه بحول الله في العام المقبل الخ .. » .

والملاحظ ان هذا الديوان الذي ظهر في عام ١٩٢٧ ويشتمل على قصائده الاجتماعية والوطنية وعلى مقدمة للاستاذ راجح ابراهيم ، قد اهداه « الى كل امرأة شرقية تقوم بواجبها في بيتها بين ابنائها ، والى كل استاذ شرقي يقوم بواجبه في قسمه بين تلاميذه ، والى كل فتى وفتاة خرجا من حضن امهما الى حضن المدرسة القومية ليخرجا منها عارفين قيمتهما ومقدرين حقوق البلاد عليهما الخ .. » كما احتوى على مقدمة ادبية رائعة كتبها الاستاذ راجح ابراهيم واستغرقت خمس عشرة صفحة تعرض فيها الى تعريف الشعر والى ابراز اطواره والى شيوعه ورواجه في قصور الخلفاء والامراء والبراة وذوي اليسار في ايام ازدهار الحضارة الاسلامية التي بهرت اشعتها الابصار مما جعل الشعراء يتفننون في مجالات الابداع والابتكار ، كما تعرض فيها الى ما تعاقب على البلاد التونسية من افراح واتراح كانت نهايتها احتلال تونس عام ١٨٨١ كما تناول فيها بعض ميزات الشاعر وكفاحه الطويل من اجل بعث مجتمع الكفاية والعدل ، اذ سعيد عاش في اتون من القلق والضجر فكم تالم من تاخر الشرق وتلاعب الغرب به ، وكم من مرة حث امته على النهوض ودعاها الى ترك التواكل والكسل ... انه دفع بلهيب زفراته النفوس الخامدة وايقظ باشعاره النائمين. ومن اجل هذه الاهداف كان يستنهض ابناء جيله ويهيب بالشعراء في قصيدته (ايها الشعراء) (٦) :

وصار عليكم ان تقولوا : حياتنا — رفيقة ياس لا قيام لراقد
الى الحزم والتفكير في شان امة — سقاها كؤوس الويل داء التحاسد
الى خدمة الاوطان قد ضيع العلا — بنوها وحادوا عن كمال وسؤدد
الى رفعها قد حان يوم صعودها — وقد قابلت سهم الفناء بتجلد
الى مدحها في نهضة ادبية — بالامكم قبل اصطدام الشدائد
الى نهضة بالشعب قبل مماته — الى قطع اسباب الهلاك المهدد
الى كشف اسباب النجاح بربكم — عسى غافل للخير من ذاك يهتدي
الى بث روح الالتحام لعلنا — بها في هناء النفس والعيش نقتدي
الى صقل مراة الفخار ! الى متى — يضيع لدينا وهو اشرف تالد
الى حث السوام لنيل فضيلة — تجر بني الانسان نحو المحامد
الى وضع ايديكم بكفي فانني — اساعدكم يا اهل ودي بساعدي

« الزهرات » : وهو ديوان شعر صغير نشرت اغلب قصائده بجريدة « النديم » . ويتحدث سعيد عنه في المقدمة ص ٦ فيقول : « ولقد بذلنا مجهوداتنا وجعلنا هذه المجموعة عبارة عن «كشكول» يجد فيه المطالع شيئا من كل شيء ضرورة اننا كنا ننتقل فيها بقرائنا من الادبيات الى الاجتماعيات ومنها الى الفكاهات والمداعبات كل ذلك حرصا منا على ارتياح نفس المتطلع اليها فاذا هي لم تكن لترتاح الى ذلك فحسبنا اننا اردنا وحاولنا» .

« مؤتمر البعث » وهو مجموعة مقالات ظهرت بالنهضة اولا ثم اصدرها فيما بعد في كتيب يقع في ٨١ صفحة عام ١٩٣٦ واعيد نشره عام ١٩٦٧ ضمن منشورات الحزب الاشتراكي الدستوري .

الجزء الاول من كتاب « دليل الاندلس » او الاندلس كانك تراها وهو كتاب فريد في نوعه يشتمل على مجموعة من الصور الفوتغرافية اخذت من قصر المعتمد بن عباد « باشبيلية » ومن الجامع الاعظم « بقرطبة » وفيه وصف لاثار مدينتي « قرطبة » و « اشبيلية » ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٢٣ .

الاثار الغير المطبوعة :

١ ـ الرحلة الجزائرية : وهو وصف للاماكن التي زارها وقد نشر بين سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٩ ، ارتسامات عن هذه الرحلة في حلقات متسلسلة بعنوان « عشرون يوما في عمالة قسنطينة » (٧) .

٢ ـ الجزء الثاني من كتابه : « دليل الاندلس » وهو يحتوي على وصف بقية المدن الاندلسية التي زارها .

٣ ـ الجزء الثاني من ديوانه « السعديات » وهو يحتوي على قصائده السياسية .

وعلى كل فان انتاج « سعيد » لو حاولنا تقييمه وتعيير قيمته فاننا نجد هذه القيمة واضحة جلية خاصة في كتابيه : « دليل الاندلس » الذي انتهج فيه منهج كبار الجغرافيين والمؤرخين العرب ، اذ برز فيه اسلوبه الشيق الاخاذ وظهر فيه التاثر واضحا بكتب الرحالين امثال : ابن بطوطة وغيره و « السعديات » وهو اهم اثر شعري خلفه سعيد لنا وفيه طرق كثيرا من مظاهر الحياة الاجتماعية والملاحظات ان اغلب قصائد هذا الديوان تطغى عليها مسحة من التشاؤم والسخافة والقلق من الحياة ، ومن الوجود بوجه عام .

وطنية سعيد : ومن الطبيعي ان يتاثر هذا الاديب باحداث عصره ويتفاعل معها فيتصدى للاستعمار ويتحدى

---

(٦) ديوان السعديات ج ١ ص ٤٥ ط. تونس ١٩٢٧ .

(٧) « شخصيات وتيارات » لاحمد خالد ص ٤٧ ط سوسة (تونس) عام ١٩٦٩ .

الرجعية في قوة وعنف لانه كان وطنيا صادقا وابنا بارا لبلاده .

ونحن ان اردنا ان نتحدث عن « سعيد الوطني » فاننا سنتحدث عن احلى ميزة لهذا الرجل وابرزها .. لقد تفتح احساسه الوطني منذ الصغر ومنذ ان شعر انه يمشي فوق تراب تونس فاخذ يتحدث على لسانها قائلا :

انا الزهرة التعساء فاح اريجها ... واوراقها من حزنها تتذابل
رآها رسول الموت تخفى خياله ... فاصبح بالمرصاد لا يتنقل
انا الغصن في زهر الشباب يقصه ... بقادومة الحطاب وهو مولول
انا تونس الخضراء ، وبك الى متى ... على السير في نهج العلا تتغافل
كأنك لا تلقي العبيرة آذ تـرى ... بـلادك في خطب ولا تتقلقل

ولم يترك سعيد اية فرصة دون ان ينبه شعبه الى المكائد التي يعيدها له الدخلاء الاجانب وما فتىء يوقظه ويحثه على الكفاح والثورة فنسمعه يقول :

يزعم المستبد أن يسد الفو ... لاذ اولى بمن يسدده عليه
ليس بالضغط يسكن الشعب لكن ... يوم يلقى حقوقه في يديه (٨)

وتهزه موجة من الاحساس العنيف فيصنع سهاما من قوالب الشعر ، هي الى القوة والصمود اقرب من غيرها حينما يشتد ضغط المستبد على الاحرار فيثور في نفسه قائلا :

قولو الذي شغف بالعسف يشفقه ... مستعملا نغمة الطلاب للثار
فتش ديار الالى لا يعرفون الى ... من أتت أتيه غير الخزي والعار
لا يرجع الحر عن اسباب نهضته ... حتى ولو سكن «البوليس» في الدار(٩)

وتبلغ اصداء اشعاره الطغاة فيزداد غيظهم ويتضاعف عسفهم فتمتلىء السجون بالمعتقلين ويغمر القلوب شعور بالارهاب .. لكن رغم كل هذا نسمع دوي الشجعان من ابناء شعبنا البطل يرددون قولة شاعرنا البطل :

الحر لا يخشى السجون وانما ... تخشى السجون بان تضم مثيله(١٠)

فهو يهزء بالعذاب المسلط على شعبه لانه آمن بارادة الشعب وبان الحق يعلو ولا يعلى عليه ، فقد كان سعيد ابا بكر كما ذكر المؤرخ ح ح عبد الوهاب في «مجمل تاريخ الادب التونسي» ص ٢١٦ : « ... وطنيا صميما متمسكا اشد التمسك بحب بلاده ؛ وقد تلوح هذه العاطفة في كثير من اشعاره » .

سعيد كاتب ملتزم وشاعر مجدد : كان سعيد يعبر عن خلجات نفسه المضطربة اولا في جريدة « النديم » « زهرة بعد زهرة » حيث اعتنى بمشاكل مجتمعه في هذا الركن ، وسلط اضواءه واتجاهاته السياسية والاجتماعية على ضوء المبادىء والمثل التي آمن بها منذ فجر شبابه وعلى ضوء هذا الاختيار الهادف ينشر قصائد ملتزمة

(٨) الزهرات : ص ٢١ .

(٩) ديوان « السعديات » ص ٧٠ .

(١٠) الزهرات ص ٢٥ .

مثل : « الناس ذئاب » و « كم بددوا » و « قم من سباتك » و « بئس التمدن » و « ويل هذا الشعب » و « انني لا انثني » ثم نراه في مقالاته النقدية على جريدة « لسان الشعب » وفي كل من « السعديات » و « مؤتمر البعث » متجها وجهة معينة هي اخلاصه لبلاده . وحبه الجارف لشعبه ، ودفاعه عن ابناء وطنه ، ومحاولة ايقاظهم من سباتهم الطويل ليستعيدوا مجدهم التالد ، ومن اجل تحقيق هذه الاهداف السامية نراه ينادي بحرية الصحافة والاهتمام بالفقير ، ويصور ماساة المرأة التونسية ويدعو الى فتح آفاق التعليم في وجهها ويؤازرها في حق اختيار الزوج الكفء ويتحدى المهور الغالية وينادي بالثورة للقضاء على المستبد .

وعلى الرغم من الصعوبات التي وجدها سعيد لاهتمامه بهذه القضايا والتزامه بها شانه في ذلك شان زميليه « الحداد والشابي » فانه جابه الصعاب بنفس قوية واستطاع ان يغذي بهذا اللون من الانتاج الادبي الجماهير القلقة ، وان يدفعها الى البذل والتضحية فتستجيب للنداء وتلبي الطلب عن طواعية ورضا .

وسعيد بعزوفه عن الاغراض الشعرية التقليدية كالغزل والمديح وغيرهما المنتشرة بوفرة في تلك الفترة — تهيا وتبوأ لمصاف شعراء الالتزام الكبار بالاضافة الى شهرته كشاعر مجدد ؛ ثار على الشعراء واعطى معنى جديدا لشعره سواء من حيث المفاهيم او الاغراض أو حتى في الاسلوب .

انه تشبع بدعوة « التجديد » ثم كان من انصارها المتحمسين ، ونادى بحل قيود الشعر وحث على ادخال اوزان جديدة عليه ؛ ثم كان اول تونسي نظم في هذه الاوزان التي ابتكرها شعراء المهجر (١١) ونستطيع ان نلاحظ هذا التاثر حتى في عناوين القصائد والدواوين فقصيدة « الغصن المجرد » وضعه على منوال « النهر المتجمد » لمخائيل نعيمه ، وديوانه « السعديات » وضع على منوال « الشوقيات » لاحمد شوقي .

وعلى العموم فسعيد أبو بكر شاعر عصامي ملتزم (١٢) قد ثار على الاساليب المتبعة البالية سواء من حيث النسج والتركيب ؛ او من حيث المضمون والاوزان والقوافي .. انه ابن جيله وشاعر تونس المجدد ، فقد وعى عن عمق مشاكل أمته وعيا كاملا وتفاعل معها في ثورتها فجاء انتاجه وليد هذه التجربة شانه في ذلك شأن كل المفكرين التونسيين الذين التزموا لقضايا وطننا واستماتوا من آجله الى النهاية .

تونس — رشيد الذوادي

(١١) راجع « السعديات » ص ١٢ .

(١٢) راجع كتاب البعث : « شاعران » لمصطفى رجب الكتاب الرابع عشر : يناير ١٩٥٧ ص ٢٨ .

ربيع نجمة محترقة

فصل من قصة طويلة

بقلم سمير تنير

عندما فتحت عيني كان الظلام ما يزال خالكا ؛ فاطبقت عيني من جديد واخذت اسمع من بعيد نشيجها . لقد رحلت منذ ايام ولا ازال اسمع نشيجها كل يوم . انها هناك في الطرف الثاني من الغرفة . ولكن السرير خال ، والنافذة مغلقة، والبرد يمس الموت ، والظلال تصبغ رداء السرير بانوار ضوئية قرمزية وثنياته تتلوى امام عيني. وانا وحدي والبرد يمس الموت فاطبقت عيني من جديد واخذت انتمع من بعيد نشيجها .

قالت وداد : « هل تموت ؟ »

واطلت من عينيها حيرة وبكاء .

كانت عيناها تستغيثان : « هل تموت ؟ »

كان الجميع يسألون ولا يجابون الا بصمت ثقيل . ان الصمت اخذ يمتد الي .

امتد الى جسدي فامتلكه . صمت كثيف ياخذك بدواماته ؛ ويتركك ضائعا ، اتبكي ام تنهشك كلاب حقيرة تاخذ بتلابيبك فلا تتركك الا جثة ممزقة . كلاب كثيرة يتصاعد عواؤها من بعيد .

« انت الذي قتلتها .

— لست انا ملك الموت .

— من اذن ؟ » .

اخذت الاضواء الحمراء تطفو على السرير تصبغه بلون كلون شعلة قنديل منطفيء . مرت سيارة مسرعة في الشارع واضاءت مصابيحها السقف والنوافذ بنور باهر سطع اللحظة ثم اختفى . سمعت ازيز السيارة ، عندما مرت ، خافتا . بعيدا . ثم همد كل شيء . ان الهواء في الخارج لا يزال يتشبث بسكونه والاوراق على الاشجار غارقة في انعكاسات انوار الشارع . البنايات المجاورة تعلو وسط الظلام في قلب الفراغ لرمادي الذي غلف كل شيء . القمر يتشح بكل سواده الليلة مبحرا مع الغيوم السوداء التي تطوقه وتخنق انواره.

كانت الاشجار ترتفع بضراعة الى السماء ، والجبال بعيدة حمراء ؛ والنجوم تراجعت الى الخلف وغابت، ولم تسقط .

(ماذا .. لو) السكون يمتصني مرة ثانية . اخذ نشيجها يمتلكني من جديد . انقلبت على جنبي الاخر حيث الظلمة اشد كثافة . مددت ذراعي . عندما كنت صغيرا لم اكن انام وحيدا ، وعندما بلغت الحادية عشرة انفصلت لانام في سرير جديد، ولما كان الليل والقلق يزحفان الي، كنت امد ذراعي الى ذراعها فاستسلم لنوم مريح . اغمض عيني وانا اشعر بحرارة ذراعها تحيطني بوجودها العذب ، بينما هي تبتسم وتبتسم وتقترب وانا اتراخى في نوم حلو تحت يدي الصغيرتين ..

الصغيرتين جدا . مددت يدي فلمست بقعة من الانوار الزرقاء والوردية . انها انوار الشارع . مددت يدي اكثر ولم المس الا فراغا كما يلمس الانسان صفحة لوحة تجريدية نثرت عليها الوان كثيرة . مددت يدي ولمست زجاج النافذة. انه بارد ، بارد كنصل سكين شعرت فورا بحرارة بالغة والتهبت اذناي وعيناي (لو استطيع) .

قصة

عند النافذة شعرت بحركة راعشة قلقة : عصفور مبلل ينقر الزجاج . لم اتبينه الا قطعة سوداء مصبوغة باشعة حمراء رقيقة . انه يزقزق ثلاث مرات برتابة لا معنى لها، كصوت الم لا الم فيه ، ثاقب ونفاذ حطم السكون المتشبث بالكون والاجساد ، وبعد لحظة مرت سيارة ثانية افزعت العصفور فطار مع النور الذي غمر النافذة والسقف اللحظة ، ثم اختفى كل شيء .

عندما ترتحل الروح وتضيع في سماء رمادية لا نهاية لها ، مرصعة بغيوم وردية ، ترى اي شيء سيلحق بها ، اي طير هائم سيعثر عليها .. اية موجة ستردها؟ تنصت. سمعت الساعة في الممشى تثرثر وتنبض بثبات وعجبت انني لم انتبه لتكتكتها منذ زمن . انها تخفت الان وتدق احدى عشرة دقة « لا بد ان عادل قد نام وكذلك عائدة ، ولكنه هو ؟ هو لم يعد حتى الان ، لقد تاخر طويلا .. ترى هل سيعود اليوم ؟ هل سينسى ؟ انا لا استطيع .. هل ينساني ؟ » انشيئا ثقيلا يحيط بي .. شيء لزج وشفاف كانه عنكبوت . خطوط الاشجار والبنايات واغصان الورود البرية التي زرعها جارنا على سطحه تنتصب في فرجة النافذة ، وترتسم وسط الليل . انها واضحة . انها تعيد الي شيئا احس بانه يضيع مني واكاد افقده .. هل افقدها يا ترى ؟ احسها لصق ذراعي ، انفاسها تحيطني وتحيطني ، تسير الى قلبي ، تتقاطر اليه كتيار كهربائي يهز يدي (لو استطيع فقط) اني مضطر الى تحمل كل هذا دفعة واحدة ، فلا مجال لرده . انه يستولي على جسدي كله دفعة واحدة ، ويجعلني ارتعش وارتعش ولا استطيع التوقف . في الخارج لا تزال النجوم تضيع خلال الغيوم السوداء . القمر قد غاب تماما الان وضاع وسط هالة سوداء. انقلب في

فراشي : وفجأة يبــدو لي شيء كطريق طويل ينحدر الى واد عميق. كان محكوما علي ان انحـدر الى الهاوية ، وعلي احتمال ذلك الانحدار الذي لا مفر منه . انه لم انم منـذ ثلاثة ايام الا ساعات معـدودات . هدني التعب . ان ساعات النور لم تجلب لي اية راحة . كل شيء كان ينفتح الى ممرات طويلة عندما انام وفي كل مكان يتحرك شيء .

« ـ انت لا احد غيرك .

ـ لا لست انا .

ـ انك لم تبك .

ـ ولماذا ابكي ؟ ان حزني يقتلني وهو في قلبي .

ـ انه الموت .. الموت .. لا احد غيرك » .

كانت الزرقة المتعبة ترمقني . ظلت الزرقة تذوب ثلاثة اشهر حتى اضمحلت في ليلة تساقط رمادهـا بكثرة ، ايتها الزرقة ، يا زرقـــة العينين ، يا زرقة السماء والبحر : انا جائع اليك . ان الاستغاثـات والالم الذي عشت بجواره اياما طويلة ، تمطت الدقائق والساعـات فيها لآلاف السنين ، تعاود كرتهـا الان . ثمة شكوى تصعد من اعماق الظلمات .. كانت تتوسـل (لـو استطيع ان اقول) النـداءات لا تزال تتردد شديدة . كان ثمة مـن يهاجمني ويتعلق بي بيأس . لقـد تتابعت دقات تنبض في صمـت ، وفرغت مساحات واسعة . شعرت انني مجرد وشاجـب تماما مـن الداخل . ان وجـودا معذبا يصرخ ويجار ويعلن عن نفسه بنداءات لا اسم لها .. ان قطة تموء وتتصاعد مواؤها ليملأ كل مكان في نفسي . اخذ الهدوء ينساب الي من مكان اجهله . يتسرب من نقطة اخـذت تتسع وتتسع . سألت امي : « لماذا تموء القطط في الليل ؛ اتنـادي صغارها الذين نفقدتهم ؟

انني استمع اليها . كنت استمع اليها في ليال كثيرة . قالت : « انها تنادي الله » ..

ـ ولماذا تناديه ؟

ـ انها تناديه لكي يساعدها

ـ وما الذي تريد ان يفعل لها ؟

ـ انها تناديه كي يساعدها حتى لا ترى انسانا ، لانها تريد ان تبقى لها حياتها وصغارها .

في الغرفة المجاورة كانوا نائمين . كانت التنفسات ذات الايقاعـات الرتيبة تتلاقى . كان هناك من يتقلب في فراشه ويتنهد بيـن آن وآن . انها وداد .

سمعت شهقة سريعة : « عائـدة لماذا تركتني وحيدة ؟

كان الصوت ينساب كانه يتحنس يبدو انه صوت يريد اختطاف ثانية من الراحة ، وما من احد يظفر بها . كانوا جميعا متلاشين في النوم المصطنع الذي يهبط دون رحمة ليذوب اخر الامر في تشويش لا نهاية له .. ان الالم يسيل نحو الجميع فيشل قلوبهم ويجمدهم في السكون . كان الالم يبني قلاعا لا منافذ لها ، وعالمـا اسود مغلقا بلا رحمة . كان الطعام يحمل الينا ، تحمله وداد وعائدة ، فلا يمد احد يدا الا لبضع لقيمات ثم يشيح عنه .

قالت عائدة :

ـ ما بك الم تستطيعي النوم ؟

ـ بلى .. نمت وافقت الان .

الم يأت بعد ؟

ـ لا لم يأت بعد .

وما الذي يفعله ؟ لم لم يـأت بعد ؟

ـ لا اعرف ..

نهضت وجلسـت في السرير . طويت رجلي تحتي . نحيت الغطاء قليلا ورفعت نظري الى السماء التي انفرجت بعض غيومها ، وتوشحـت بلون الصفرة الفوسفورية . جعلت امر بيدي على وجهي وذراعي . لقد فقدت لحما كثيرا .. ان العينين قد وسعتا وتقرحتا . كان ثمة نبتة ذات جذور ضاربة بين السماء والارض تمتصني وتفرغني كالقشرة . كانت اغصان ترتفع وتهوي هزيلة بعد ان بلغ مداها من النمو . ظللت وحيدا مع تلك النار التي اخـذت تسري كامواج رقيقة (لو استطيع ، لـو استطيع فقط)

« عندما عدت من المدرسة في ذلك اليوم احسست ان شيئا قد حدث.

لم اكن احب ان انهي الدروس الطويلة في النهار دون ان اتشرد ولو لوقت قصير في الشوارع . كنـت احب ان اعود الى البيت عندما ينتشر الرماد والهدوء ويموت الضجيج . وفي ذلك اليوم عندما عـدت كان شعاع من الشمس يخترق اوراق الاشجار وينحـدر حتى يلامس جذعها . كانت الازهـار قـد احترقت وذراها الهواء ، وكانـت بعض الاوراق تسقط وتطفـو في الهواء ثم تسقط . كان شعـاع الشمس الذي تسلل من بين الاغصان يغمر وجهها ويضيء خيوطا وردية تحفر اخاديد قاسية . كانت ترفع يدها الى شعرهـا . كان الصمت يمتزج بالرماد والظلال ويجمـد الكائنات . وهنـاه وسط النـور المتكسر على الاغصان كان عصفـور يغني . ينبعث غناؤه من مكان اجهل تحديده . يزقزق ثم يصمت كان سكينا قطعت عنقه ، ثم يعود لغنائه والاوراق تتحرك وتهذر مع النسيم ، والهواء يعنف فيثير غبار الحديقة حاملا الي عبير الازهار المحترقة .

عندما وطئت شرفة البيت رفعت وجهها ونظرت الي .

ـ طارق .. لماذا تاخـرت يـا حبيبي .

ـ تشردت قليلا في الشوارع .. ثم رجعت .

ـ هل انت جائع . ساحضر لك الطعام .

ـ لا .. لا تعذبي نفســك .. لست جائعا .

اضاءت النافذة شعاعات الشمس الغاربة . كانت عيناه لا تزالان تنظران

الي . لحظة واحدة وصار امام الباب نظر الي وهو يمر بيده على الاشياء . تناول سيكارة واشعلها . ولم ينظر الي . ثم صفق الباب وذهب . احسست ان نبضي قد اخذ يتحرك في صدغي ورقبتي . ارتجفت اصابعي (ورود ازهار ذبلت وجفت ثم سقطت واحرقتها الشمس) . بدأت الساعة تهدر وتثرثر وتنبض برتابة واضحة ، رنانة . عندما تقدمت نحو الباب كان النور قدمات تماما ، وخلف ظلاله .. وعندما تقدمت خطوة ثانية كانت يد باردة كالثلج قد وضعت على خدي وصوت يسيل عذوبة يقول : « طارق .. طارق الى اين تذهب يا حبيبي ؟ الان رجعت فقط .. هل انت زعلان مني ؟ » . كان هو يركض وينادي تاكسيا عندما عرفت للتو ماذا فعل . كان يمشي كقطار مسرع ويمسك بذراعها . كان يركض وسط شارع مليء بالدخان ، بينما أزهار الاشجار التي احرقتها الشمس تتساقط وتتقاطر اليه في رذاذ كرذاذ المطر .

عندما اخترقت الحديقة سمعت اصداء خطواته ، وعندما اظلم الليل خرج من مرآته وكنت اسمع خطواته وكنت اسمع نحيبا وشهقات بكاء . عندما عاد مع القمر كسحابة سوداء رايت الظلال تمشي حوله . كان يسير الى سريره ، ثم يلقي بجسده على السرير ويستغرق في نوم ثقيل ؛ بينما يرتفع نحيب وآهات وترتفع يد الى شعرها .

اصداء خطوات بدات تقطع الشارع واضحة خافتة رنانة . اصداء طويلة . ثم تعكر الصمت وتبعتها اصداء خطوات سريعة قوية ورنانة .. القيت بالغطاء بعيدا ، واتجهت الى النافذة . عند زاوية الشارع كانت فتاة تعبر تضم شيئا بيديها الى صدرها ، يلاحقها ظل طويل ينبثق من دائرة النور ويتلاشى مع الليل الذي جمد الكائنات .

« عندما وضعت يدي على الباب امس في الحديقة ، احسست ان لم يعد في البيت شيء . النافذة بعيدة ومظلمة ؛ وفي الدار كان المطبخ ساكنا والغبار يملأ الرفوف والغسالة الكهربائية مهملة في زاويتها . والمائدة تتناثر عليها الاكواب والصحون والسكاكين في فوضى . وقفت في ممر الحديقة ، كان شيئا منعني من متابعة السير ، وعندها رايت القطة . اقتربت مني غير خائفة . هل فقدت هي أحد صغارها فاتت تخفف عني عبء الفجيعة ؟ اقتربت مني ، فانحنيت واخذت امر بيدي على راسها ملامسا فراءها الناعم ، فاخذت تهرهر هريرا ناعما ناظرة بعينيها نحو البيت : « آه .. آه لو تعلمين » . خطوت وكانت القطة تخطو معي ، وعندما اقتربت من النافذة كان الغسق يلقي بالنور الوردي على الزجاج ، وفي فسحة الغرفة والنافذة خالية . كانت الغرفة فيما سبق تبدو لي واسعة فسيحة اما الان .. اكاد لا استطيع التنفس . عندما كان النور يشرق كنت اراها في الغرفة مع زقزقة العصفور ، وعندما يغيب النور وينتشر الشفق في النافذة مع الليل تمتد الحديقة مظلمة والغبار فيها يتناثر مع نور لا يزال يرتعش كشلال ، وقلبي ينبض بثبات في صدري .

كان الهواء يعصف في الخارج وقطرات الماء بدات تضرب الزجاج والسكون لا يزال في الغرفة وفي قلبي . منذ ساعات طويلة كنت انتظر ان يأتي ابي . جلست على السرير واحطت رجلي المثنيتين بذراعين ترتجفان بين حين وحين . فرقعت السماء . وقصفت برعدها رفعت نظري الى الاعلى . رأيت حافة النافذة العليا وبقعة من السقف ترتسم عليها ظلال مصابيح النوافذ البعيدة . منذ ثلاث ليال وانا اراقب نور تلك البقعة المستطيلة بالضياء في السقف وعلى الجدار وهي تتحول كل يوم الى ظلمة : لو اقول يا امي امي : .

« النور انبعث الى عيني وهاجا عندما واجهتني الشرفة الصغيرة خطوت الدرجات الخمس الى الدار كانت الشرفة قذرة واوراق الاشجار تتناثر فيها والهواء يعبث فيلقي بالاوراق على الدرجات . في المطبخ وفي الغرف كان السكون اسود يلقي غلالته ، وهي لم تطل في الشفق بعد « لم تاخرت قلقت عليك . هل احضر لك الطعام » (لو اقول يا امي) تقدمت . يدي ارتفعت الى جبيني ، وانا اغفل عن النافذة والضياء الشاحب في الحديقة (ورود ورود عائلتنا تنعي لكم بمزيد اللوعة ورود) تقدمت الى غرفتي . هل اجد اخي ؟ ماذا يفعل يا ترى ؟ كان امام النافذة وفي يده تحترق لفافة يتصاعد دخانها الازرق : « هل عاد عادل ؟ هل رجع ؟ يا الله لماذا تاخر » كانت النافذة تغوص في الشفق والصوت بعيد » .

ثلاث ليال تمر مذ اعلنت عائلتنا بمزيد اللوعة وفاة امنا . كان الوجه قد غاب مع الشفق وترك نافذة فارغة (ورود .. ازهار احتضنت جسدا كان يودع اعوام تعب طويلة) منذ ساعات الصباح الباكر لم يعد بعد . هل سيعود اليوم ؟ .

« مشيت الى الحديقة عندما رايت عادل يضع يده على حافة السياج كان يهتز بنشيج . كانت يده تهتز » .

(انا لم ارد هذا انه ليس

اكاد ارى الشيء ينمو من الارض مع الشوك عندما يعود الظلام كان من المرآة يخرج مع الشفق يرحل الى امراة شقراء هناك : في مدينة ابعد من سفح الجبل .

انه كذلك ليس هو الا خطاك

انت لست الا طفلا الا ترى انني انه ليس الا)

« لم يتحرك عندما واجهته . كانت الحمرة تنمر عينيه .

— اتركني . الا ترى ما نحن فيه ؟

– ارى .. طارق لا يظن انني ..

– انا لا اقول اي شيء . الا تعلم اي شيء فقدناه ؟

كان الاصيل ينحدر من الافق عندما تركني وانحدر الى الحديقة بجانب شجرة الليمون . كانت الاشجار والاوراق تلفه والشمس تسطع » .

السماء تقصف وترعد مع مطر يسيل ويجري ويضرب السقف . وفي الغرف صمت مميت . والساعة لم اسمعها . هل سيأتي ؟ منذ يومين قررنا نحن الاولاد ان لا نلقي على ابينا اية تحية ، وان لا نجري معه اي حديث . ولقد غادر البيت منذ الصباح دون ان يخبرنا بوجهته ، والتلفون ظل صامتا ، فهل تراه يعود ؟ الظلمة تتكاثف مع السكون في غرفتي ، والبقعة المضيئة في السقف وعلى الجدار تكاد تتلاشى . كنت اسمع نقرات المطر ونشيد الريح الغاضبة . ثلاثة ايام غمرت الازهار دارنا ، واتى اناس طلوا وجوههم بحزن كاذب . كانت الورود تغيب مع جسد خبيب (الازهار فاحت ، نشرت حزنا اعلن منذ ثلاثة ايام مع اوراق كانت تلصق على الجدران ورود) ترى هل سيعود ؟

« انسفحت على خدي قطرات المطر عندما جلست في مقعدي في الاوتوبيس . كنت متوجها الى عملي بعد انقطاع يومين . وفي المكتب كان كل شيء يرقد كما لو لم يمسه احد . لم اسمع الضحكات تنساب . كان الصخب في الشارع وفي الحافلة ، وكان السكون في قلبي »

التفت بسرعة الى النافذة . هل يسود الظلام الشامل من جديد . كانت الريح من بعيد تعيد انشودتها الغاضبة .

« اضاء القمر الشاحب امس حديقتنا . وعلى البعد رايت عادل ظلا مع الشارع امام الفناء يعلو الى السماء . القمر الشاحب انحدر الى نافذة كنت اتطلع نحوها بلهفة علني ارى احدا يسطر ويرنو من خلالها مع القمر تحت السياج والهواء البارد يصفع وجهي . كنت ارى عادل يتكيء على شجرة الليمون من بين فسحات الاوراق » .

! في قلب الظلمة كنت الهث

مع الليل كنت استمع الى البكاء

اعط امي فرصة لكي تعيش

ارجوك امي

ما بها

مع الظلمة في الفراغ الواسع كان القمر اصفر شاحبا يتعلق مع السحب في الفراغ كان وجهها يغيب كسحابة بيضاء تعبر سماء شديدة الزرقة

ظله الطويل في الغرفة امام الزرقة .

من خلال النافذة كان الهواء الفضي ينساب الي

لم يكن من احد في الدار كنت وحيدا

عندما غاب القمر في السحابة السوداء واختفى مع ظله الهواء كان الوجه يبدو ضئيلا وكنت ارتجف عندما سمعت صوت وداد كنت اركض والهث الى الطبيب لم يكن من سيارة في الطريق كنت الهث واركض وانا ارتجف عندما لاح ضوء المصباح لماعا كنت في وسط الطريق الوح بيدي ولما وقف السائق واشار لي ركضت الى باب السيارة افتحه وانا الهث اقول

ارجوك امي

ما بها

في الغرفة تحت المصباح وقف الطبيب يفتح حقيبته الجلدية والسحابة البيضاء تتبدد بسرعة في سماء زرقة متوهجة .

في الغرفة امام النافذة كنت اتطلع الى الوجه الذي اضاع منذ قليل انوار الوجود والسماء القمر كان لا يزال يبين دخانا اصفر من خلال سحابة التمعت بالشعاع كانت نقطتان مظلمتان تغيبان مع سحابة بيضاء تبددت واصبحت رذاذا .

ارجوك امي

ما بها

كنت اسمع اصداء الخطوات رغم الريح . التفت بسرعة الى ستارة النافذة الممزقة . انها ساكنة متموجة الثنيات ، والريح لا تزال ترسل صرختها . عادت الاقدام تطأ الريح بخفة كان لصا يخترق المشى . ترى هل عاد ؟ خفق قلبي بسرعة . دقيقة واحدة وكنت امام الباب ، في المشى :

في الغرفة الواسعة كنا جميعا نتطلع اليه . انه لا يتكلم . انه يترنح في مشيته .

– ابي .. تعال اجلس هنا ... هل انت بخير ؟

وداد كانت تقول هذا . كان وجهه قاتم الصفرة يتطلع الى الارض ولا يتكلم . فرقعت السماء بشدة وغاب النور ، في الظلمة كنا جميعا نتنفس وفاء الصغيرة شهقت وصرخت . صاحت وداد : « اشعلوا الشمعة » قالت وفاء بلثغتها : « انا ساشعلها »

ابي بوجهه الاصفر ، بطياته العميقة ، يبرز الي من خلال النور الباهت . كان يتطلع الي .

– هل هذا ما تريده ؟ انني استنزل عليكم لعنات الله .

– انك لا تدرك ما تقول . انك مخمور . الا تخجل من نفسك ؟

– لو كنت قويا الان لصفعتك صفعة تلقيك شهرا في الفراش . انك لا تطاق ..

– هيا جرب . اريد ان افرغ غضبي انا ايضا . امنا تموت وتتركني وحيدا ارى الموت . الا تدرك انني صغير ؟ لماذا تركتني وحدي ؟ اين كنت ؟ اريد ان اعرف

– ليس هذا شانك .

– حسنا .. سنعرف كيف نتصرف معك بعد الان . انك لست بابينا . نحن نتبرأ منك .

جدران الغرفة سوداء متعكرة والعينان تلمعان بصورة هائلة .

الى وجـــدة

وجـــدة !..
ها قـد اصبحـت لعيني روضــة
تحمــل في عينيهـــا الازهـــار
صارت وديانـــك تحمـــل فضـة
تسكـب ... في اوراق الاشجـار
وتوزع حبـــل الالهـام على الاطيار
حسبك انك صرت كلؤلؤة في عقد الاشجـار
تسبـح كالحلم العاطر ما بين فساتين الاقمار
وجـــدة !..
حبي لـك اكبـر من كل الاشيـاء
واسمـك اقدس من كل الاسمـاء
حفرتـه اصابع كفي اليمنى فـوق الصخر
تركتـه تمثـالا يسخر من امـواج البحر
يا من علمت القلب هوى وجـده
افـلا علمتـه تحطيم جـدار الوحـده

الرباط ـ المغرب   محمد علي الرباوي

ـ انني سابصق على قبوركم .
لياخذكم الشيطان . هاه .. هاه..
اذهب عني وفتش عن حبيبتك .
ـ ماذا تقول .. هل تقول هذا ؟
النظرات مسامير تثقب الظلمة
كنت امام الباب ، وعائدة تحيطني
بعينيها .
ـ اذهبوا عني. غدا ياخذني القبر
ولا احد يهتم بي .
ـ كيف تقول انت هـــذا ؟ ..
وامنا ؟
ـ اسمع انا لا يهمني احد .
ـ وامنا ..
تحركت يداه بسرعة واشعلـــت
السيجارة . كان يهذر ويهذي .
ـ تعال .. عادل .
ـ ماذا تقول ايها الكلب .. هل.
عندما تحركت يده القى بالسيكارة
وسحقها على البـــلاط . عندمـــا
ارتعشت يدي كان هو قد اطبق على
وكان نور الشمعة يتهاوى من ورائي
وفي المطبخ .

العصفور كان يصرخ بضراوة .
والنور من حولي يتهاوى، والنظرات
سهام هائلة ، والعصفور يزقـــزق
ويدي لا تزال تقبضها يده ..
ـ ألا تعرفون .. الان ستعرفون
انني رب هذا البيت ..
عندما رأيته مرة ثانية كنت احاول
ان احرر يدي منه وان ابتعـد الى
الجدار . كان الوجه يبدو لي مـن
خلال النور اسود لامعا ، وكنـت
استطيع من خلال النافذة ان ارى
السماء والاشجار والاضواء بعيـدة
ونور الشمعة يتهاوى من ورائي ..
ـ دعني وشأني .
عندما اقتربت عائدة ووضعـــت
يدها على كتفي كان عـادل يحيطني
بيده ونحن نخطو الى غرفتنا .
عندما اتكأت على حافة النافـذة
ما كنت اسمع الا المطر يهذر ويثرثر
وكان بوسعي ان اسمع العصفور :
ولبثت متكئا حتى سمعت الصراخ .
كانت النار تئز وهي تلهب وفاء .

عندما رايت النار كانت الاقـــدام
تركض بسرعة ويدا ابي تحتضنـــان
وفاء تطفئان ثيابها المشتعلة . كانت
اليدان في النار، مع النار التي لاتزال
تئز وابي بيديه لا يزال، بيديه يطفىء
الثياب المشتعلة وهما تحترقـــان .
عندما انطفات النار سمعت العصفور
والشمعة كانت ملقاة بجانب وفـــاء
على الارض. الصغيرة وفاء لم تعرف
عندما عبث الهواء بالشعلة في الشمعة
وكادت تنطفىء ، الا ان تخبـــىء
الشمعة تحت ثوبها كيـــلا تنطفىء
وعند ذلك اشتعلت هي والشمعـــة
انطفات ..
اليدان كانتا قد قضتا على النار
في الثياب .. عندما راينا وجه ابي
ويديه المحترقتين كان جسده يرتمي
على المقعد وهو يجهش بالبكاء :

ـ انا لم اقتل امكم يا اولادي !

سمير تنير